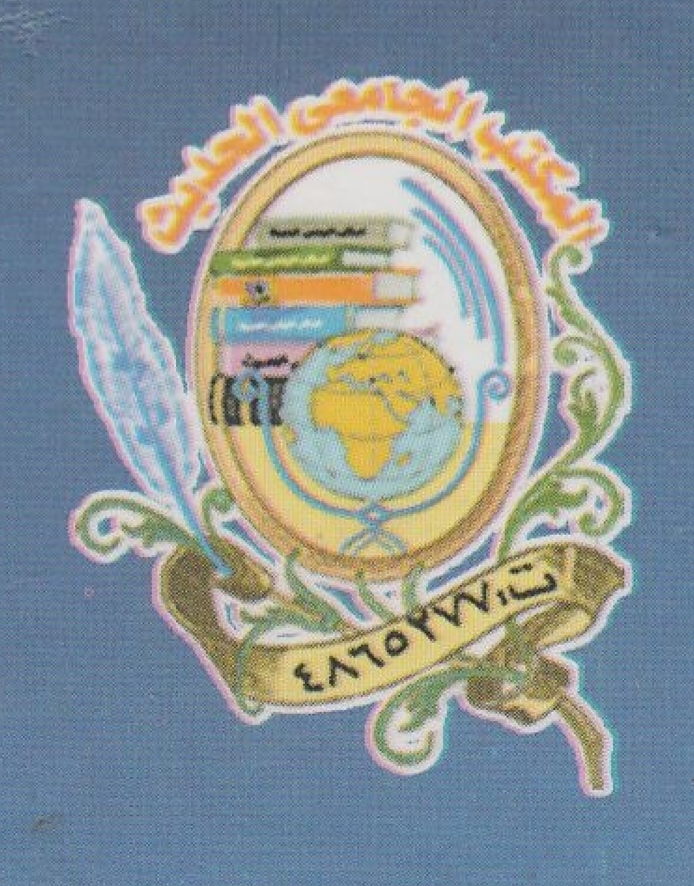


تاريخ عمان و عصر النبوة

قراءة جديدة
للمصادر والوثائق التاريخية

الأستاذ الدكتور
عبد المنعم عبد الحميد سلطان
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية - جامعة سوهاج
وجامعة السلطان قابوس سابقاً



نسخة من رسالة الرسول الكريم ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجلندي
يدعو فيها عليه الصلاة والسلام (أهل عُمان) لدخول الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ـــ السلام على من أتبع الهدى،

أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما، تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وانكما ان أقررتما بالإسلام وليتكما، وان أبيتما فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تطأ ساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما»

المكتب الجامعي الحديث
مساكن سوتير - أمام سيراميكا كليوباترا
عمارة (5) مدخل (2) - الأزاريطة - الإسكندرية
تليفون: 4818707 / 03 - تليفاكس: 4865277 / 03 / 002
E-mail: modernoffice25@yahoo.com


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

نسخة من رسالة الرسول الكريم ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجلندي يدعو فيها عليه الصلاة والسلام (أهل عُمان) لدخول الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ــ السلام على من أتبع الهدى.

أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما، تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما ان أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تطأ ساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما»

تاريخ عمان وعصر النبوة

قراءة جديدة
للمصادر والوثائق التاريخية

الأستاذ الدكتور

عبد المنعم عبد الحميد سلطان

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة سوهاج

وجامعة السلطان قابوس سابقاً

2010



إهـــداء

إلى أحفادي ....

- بريهان ومحمد وائل محمود .
- فاطمة وعبدالله أحمد حمدي .
- سلمي وسما سامح الشيمي.

إبتسامة اليوم ، وأمل الغد

ليذكروا جدّهم ، إذا عزّ اللقاء

أ.د. / عبد المنعم سلطان
رمضان ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

المقدمة

بين يدي القارئ الكريم الكتاب الأول من سلسلة كتب بعنوان: **تاريخ عُمان والدولة الإسلامية فى العصر الإسلامي**، والتى يحمل **الكتاب الأول** منها عنوان: تاريخ عُمان وعصر النبوة، **والثاني**: تاريخ عمان وعصر الخلافة الراشدة، **والثالث**: تاريخ عُمان والعصر الأموي، **والرابع**: تاريخ عُمان والدولة العباسية.

والواقع أن هذا المشروع العلمي كنت أُعد لتنفيذه منذ ما يزيد عن العشر سنوات بتجميع ما يمكن تجميعه من المصادر والوثائق اللازمة لتغطية المعلومات الكثيرة والمتشعبة التى تشتمل عليها الدراسة، وفى نفس الوقت توثيقها توثيقاً علمياً ومنهجياً، وقبل هذا وذاك أن أقدم رؤية جديدة فى كثير من الموضوعات ومناقشة العديد من القضايا الخلافية للإقتراب من الحقيقة قدر المستطاع .

وكان الهدف من هذا الجهد هو أن أقدم عملاً علمياً نافعاً للعامة من الناس، والخاصة من المهتمين بالبحث فى مجال التاريخ الإسلامي، أما الهدف الأول والأخير فهو التقرب إلى الله عز وجل بعلم يُنتفع به وذكرى لا ينقطع بها عملى فى الدنيا.

ويحتوي هذا الكتاب فى التمهيد على عرض عام لأهم مصادر البحث فى التاريخ الإسلامي بوجه عام، وأعتقد أنه لابد لمن يقتحم العمل فى هذا التخصص أن يكون ملماً بأدواته، عارفاً بوثائقه ومصادره، كما كان من الضروري أيضاً التعرض لمصادر البحث في التاريخ العملنى فى العصر

الإسلامي والإشارة إلى ندرة ما كتب عن تاريخ عمان فى هذه الفترة، وقــد ذكرت أسباب هذه الندرة كما جاء فى كتابات المؤرخين العمانيين أنفسهم.

وقد جاء **الفصل الأول بعنوان: أحوال مكة وعمان قبيــل الإســلام،** وبدأت أولاً بأحوال مكة وأسباب زعامة قبيلة قريش لقبائل مكة، وســيطرتها على الوظائف المهمة التى تدار من خلالها شئون المدينة، كما أوجزت حادثة الفيل ومحاولة إبرهة الأشرم فى اقتحام مكة وتدمير بيت الله الحــرام الــذى حماه الله بالطير الأبابيل.

كما أشرت إلى العوامل التى كانت سبباً فى نشاط مكــة التجــاري، وسيطرة أصحاب الإيلاف من قريش على معظم الحركة التجارية لأنهم أهل حرم الله تعالى، وولاة بيته العزيز فلا يتعرض أحد لقوافلهم التجارية، والناس غيرهم بين مختطف ومنهوب. واستعرضت الأوضاع الدينية فى مكة قبيــل الإسلام بإيجاز، وتحدثت ثانياً عن أحوال عُمان قبيل الإسلام، أوضحت مــن خلاله أهمية الموقع الجغرافي لعُمان، وحدودها كما ذكرهــا الجغرافيــون، وكانت عُمان قبيل الإسلام ترتبط بمكة وسوق عكاظ بروابط تجارية وأدبية، فكانت عُمان بحكم موقعها تلعب دوراً مؤثراً في النشاط التجاري والبحــري، وشارك أهل عُمان بسفنهم فى نقل البضائع على اخــتلاف أنواعهــا شــرقاً وغرباً ، كما ألقيت الضوء على الأوضاع السياسية فى عُمان قبيل الإســلام، والتدخل الفارسي واحتلال الشواطئ العُمانية ومراحل الصراع بــين أهــل عُمان والفرس حتى قبيل ظهور الإسلام.

والفصل الثاني يحمل عنوان: الدور المكي فى حيــاة محمــد ﷺ ، ويحتوي عناوين رئيسية تشتمل على: مولد محمد ﷺ ونشأته ، وحادثة نزول الوحي على الرسول ﷺ كما رواها بنفسه نقلاً عن ابن هشام في السيرة، ثم

موقف مشركي قريش من الدعوة الإسلامية وتصاعد لهجة التهديد التى كان يتحدث بها وفد المشركين فى لقائهم بعم الرسول ﷺ "أبي طالب"، ثم يضطر النبي ﷺ إلى الطلب من أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم، وناقشت قضية لماذا اختار الرسول ﷺ الحبشة على وجه التحديد لهجرة أصحابه؟ ولما فشل المشركون فى إيقاف المد الإسلامي قرروا مقاطعة المسلمين ومن يؤيدهم من بني هاشم، وأيضاً فشلت هذه المقاطعة.

وعندما يأست قريش من مواجهة خطر إنتشار الإسلام كانت محاولتها لعقد مصالحة مع النبي ﷺ، وكان ما ذكره الوفد القرشي لأبي طالب يوضح ذلك، فقد جاء على لسان المشركين قولهم حسب رواية ابن اسحاق، "خذله منا وخذلنا منه، ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه".

وينتهي هذا الفصل بالحدث الخطير فى تاريخ الدعوة الإسلامية ألا وهو هجرة الرسول ﷺ والمسلمين إلى يثرب (المدينة).

أما الفصل الثالث فعنوانه: قيام دولة المدينة وإسلام أهل عُمان، ويعالج هذا الفصل موضوعين أساسيين؛ الموضوع الأول عن الأسس التى وضعها الرسول ﷺ للدولة الإسلامية الأولى فى المدينة، وتشتمل على: بناء المسجد الجامع، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ووضع الصحيفة كأول دستور مدني لجميع عناصر السكان بالمدينة، ثم الظروف التي قادت إلى ضرورة الجهاد ومواجهة قريش.

أما الموضوع الثاني فقد شرحت فيه المراحل الأولى لإسلام أهل عُمان التى بدأت بإسلام "مازن بن غضوبة" أول من اعتنق الإسلام من أهل

عُمان، ثم توالى مجيء الوفود العمانية إلى المدينة للقاء الرسول وإعلان إسلامهم أمامه، وطلب أهل عمان أن يرسل معهم الرسول ﷺ من يعلمهم شئون دينهم، مما يوحي بإن إسلام أهل عُمان فى البداية كان بمبادرة منهم ورغبة فى إعتناق الدين الإسلامي.

والفصل الرابع جاء بعنوان: **الغزوات والسرايا**، وقد عرضت هذا الموضوع بقراءة جديدة للمصادر كان الهدف منها إبراز بعض القضايا المهمة التى لم يسبق الإشارة إليها فى الكتابات السابقة لموضوع الغزوات.

وعلى سبيل المثال فإن غزوة بدر الكبرى التى واجه فيها المسلمون المشركين فى صدام كبير لأول مرة فى تاريخ المسلمين، كانت قريش لا ترغب فى هذه المواجهة، بل دفعها إليها دفعاً "أبو جهل بن هشام" الذي كان يظن أنه قد جاء إلى بدر فى نزهة عسكرية، وأنه سوف يتاجر ويسمع الأغاني ويشرب الخمر ويعود إلى مكة منتصراً فى النهاية بعد القضاء على محمد ﷺ وأصحابه، والواقع أن المعارضين للحرب كانوا يعلمون جيداً أنهم يواجهون نصفهم الآخر الذين أعلنوا إسلامهم من قريش وهاجروا إلى المدينة بصحبة الرسول ﷺ وكانت عبارة "عتبة بن ربيعة" عندما خطب فى جيش المشركين يطالبهم بالعودة حيث قال: " ... والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، لأنه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته فارجعوا ...." تدل على الرغبة الأكيدة فى عدم القتال ضد المسلمين.

وبعد استعراض أهم الغزوات ومناقشتها توقفت فى هذا الفصل عند قمة الإنتصار وهو فتح مكة سنة ٨هـ.

أما الفصل الخامس والأخير فقد حمل عنوان: سير الأحداث بين عُمان والمدينة حتى وفاة الرسول ﷺ ، وقد احتوى هذا الفصل أيضاً على موضوعين مهمين .

الموضوع الأول: عن رسالة النبي ﷺ إلى ملكي عُمان عبدو جيفر ابني الجلندي. والواقع أن هذا الموضوع يعد من أكثر الموضوعات جدلاً في هذا الكتاب بسبب الخلاف الشديد بين المصادر التاريخية التي بين أيدينا فيما يتعلق بتاريخ بعث الرسول ﷺ لرسالته إلى ملكي عُمان يدعوهما فيها إلى الإسلام، وفي شخص حامل الرسالة، وهل هي رسالة واحدة أم أكثر.

فبعض المصادر يذكر أن الرسالة حملها عمرو بن العاص إلى عُمان سنة (٦هـ) والبعض يذكر تاريخها سنة (٧ هـ) وآخرون يذكرون تاريخها سنة (٨ هـ) وأخيراً ذكرت بعض المصادر أن الرسول ﷺ أرسل عمرو بن العاص برسالته إلى ملكي عمان بعد انصرافه من حجة الوداع سنة (١٠هـ)، كما يضيف البعض اسم صحابي يُدعي "أبو زيد الأنصاري"، كان مصاحباً لعمرو بن العاص.

والجدير بالملاحظة أن اختلاف الروايات بين المصادر والوثائق التاريخية الإسلامية لا تنفرد بها هذه الحادثة فقط، ولكنها ظاهرة منتشرة في الكثير من المصادر التاريخية، ويكفي أن نلقى نظرة على روايات المؤرخين لأحداث الفتح الإسلامي لنلاحظ الإختلاف المتكرر في تحديد المكان والزمان والشخصيات التي تُنسب إليها الأحداث.

وفي اعتقادنا أن المنهج العلمي الذي يعتمد على اختيار الباحث لرواية واحدة من بين العديد من الروايات المختلفة للحادثة الواحدة، وعدم

الإشارة إلى الروايات الأخرى وإهمالها، يُعد هروباً من مواجهة المشكلة، وعدم مقدرة على الحسم بعرض الروايات المتعددة والخروج برأى محدد يظهر الحقيقة أو يقترب منها. وهذا ما واجهته فى الكثير من الموضوعات فى هذا الكتاب.

أما الموضوع الثاني فى هذا الفصل فقد تناولت فيه الأحوال فى مكة بعد الفتح وغزوتا حنين والطائف فى أعقاب فتح مكة ثم غزوة تبوك (٩ هـ)، وختمت هذا الفصل بأحداث وفاة الرسول ﷺ سنة (١١هـ) وعودة عمرو بن العاص من عُمان إلى المدينة فى حراسة وفد على مستوى عال كما سنوضح هذا فى الكتاب الثاني: "تاريخ عُمان وعصر الخلافة الراشدة" إذا كان فى العمر بقية.

وأسأل الله التوفيق والسداد ....

أ.د. / عبد المنعم سلطان

التمهيد

أولاً : أهم مصادر البحث في التاريخ الإسلامي

ثانياً : مصادر تاريخ عُمان .

تمهيد

أولاً : أهم مصادر البحث فى التاريخ الاسلامى

تنقسم المصادر التى يرجع اليها الباحثون لدراسه تاريخ العرب والاسلام إلى قسمين كبيرين:

أولها: المصادر التى تتصف بالاصاله أو التى لا يتطرق اليها الشك -وإن تطرق فإلى حد محدود-، وهذه تنقسم -بطبيعه الحال- إلى أنواع هى:

١- الاوراق الرسمية أو الحكومية وهى ما يسمى بالوثائق أى بالأرشيف وهذه قليله نادره، وما وصلنا منها لا يكفى لكتابه التاريخ. وهذه نقطه الضعف الكبرى بالنسبة لمؤرخ التاريخ الاسلامى بوجه عام اذ يضطر الى الرجوع الى مصادر من الدرجه التانية مثل روايات المؤرخين من معاصرين وغير معاصرين وليس الحال كذلك بالنسبة لمؤرخى العصور الوسطى الاوربية الذين يعتمدون على ما تزخر به دور الوثائق هناك من الاوراق الرسميه.

أما عن ندرة الوثائق التى وصلتنا من العصور الإسلاميه فلها أسباب عده: منها قله الورق وغلاء ثمنه، ففى أول الامر كان المصروف من الورق هو "البردى" نسبة الى نبات البردى الذى يصنع منه[1]. والذى عرف عند الكتاب العرب باسم القرطاس والقراطيس والذى اشتهرت مصر بانتاجه وتصديره الى القسطنطينية، وذلك قبل أن تُعرف صناعه الورق الرخيص

(١) ومن اهم مجموعات اوراق البردى الخاصة بمصر والتى تمتلكها دار الكتب المصريه، هى التى نشر بعضها الاستاذ جروهمان تحت عنوان: اوراق البردى العربية المحفوظة فى دار الكتب المصرية .

المعتاد الذى يسمى بالكاغد، وكان بداية دخوله أرض الإسلام إبتداء من منتصف القرن الثانى الهجرى(٨م).

ومن أسباب ندرة الوثائق أيضاً عدم انتشار الكتابه بالشكل الذى آلت إليه فى العصور الحديثة، حتى كان الكثير من الأوامر الحكومية، وكذلك المعاملات بين الافراد يتم عن طريق الكلام الشفهي دون حاجة الى تسجيل أو تدوين.

بعد ذلك تأتى الاضطرابات السياسية التى عانت منها دولة الخلافة، والعداء المرير بين الدول التى كانت تتعاقب فى الحكم. مما كان يدعو الدولة الجديدة الى العمل على القضاء على كل ما تركته الدولة البائدة من الاثار، والمثل الواضح لذلك ماقام به العباسيون من استئصال الامويين والقضاء على معظم ما تركوه من اثار، وما قام به المغول من اتلاف مكتبه بغداد العظيمة. والى جانب ذلك نذكر طبيعه الظروف الاجتماعيه فى تلك العصور القديمة والتى لم تكن تساعد على سلامه حفظ الأوراق الرسمية التى كثيرا ما كانت تروح ضحية الإهمال وعدم الرعايه، أو التى كانت تذهب طعمه للنيران فى كثير من الاحيان نتيجة لاستخدام الشموع ومصابيح الزيت فى الاضاءة ومن أجل القراءة ليلا.

٢- **النقود:** وهى تعتبر من الوثائق الأصيلة أيضا بسبب النقوش التى تحملها والتى تتمثل فى الاسماء والألقاب والعبارات المنقوشه على قطعها وكذلك تاريخ الضرب واسم البلد الذى سُكت فيه. فمثل هذه المعلومات لها أهميتها التاريخية، وذلك الى جانب الاهمية الاقتصادية التى تتمثل فى أنواع المعادن الثمينة المستخدمة فى ضرب النقود، ومدى نقاء السبيكة الذهبية او الفضية.

هذا كما ان النقود المكتشفة فى الحفريات الحديثة لها أهميتها بالنسبة لتحديد طرق التجاره فى مصر فى تللك العصور. كل هذا جعل من النقود علما قائما بذاته هو المصروف حديثا بـ "النميات" (numismatics)، وهو من العلوم المساعده للتاريخ. ولقد تنبه قدامى المؤرخين العرب الى أهمية النقود التاريخية فتكلموا فى علمها كما فعل البلاذرى (فى فتوح البلدان) وكما فعل المقريزى الذى كتب رسالة فى النقود[١] والحقيقة ان "كتالوجات" النقود الموجوده فى متاحف العالم المختلفة- الى جانب الدراسات الخاصة بالنقود - تكون مادة ثمينة لا غنى للمؤرخ عن الاستفاده منها.

٣- **نقوش** : والنقوش الموجوده على الاثار او على اللوحات التذكارية القديمة، وكذلك على شواهد القبور وقطع النسيج والقطع الفنية او الادوات المنزلية أو غيرها. تكون مادة تاريخية أصيلة- مثلها مثل النقود بل هى أغنى منها بسبب طبيعه حجمها وتنوع مادتها. ولقد اهتم العلماء "الاوربيون بإحصاء وجمع النقوش العربية وتسجيلها فى موسوعات تعتبر من المصادر التاريخية الهامة[٢].

٤- والآثار مثل النقوش والنقود لها اهميتها الكبيرة بسبب أصالتها وذلك أنها شواهد مادية من العصور التى أنشئت فيها. وهى تنقسم إلى معمارية وزخرفية. والنوع الأول هو الذى يسمى بالفنون الكبرى ويشمل العمائر الدينية (من المساجد والمدارس والخنقاوات)، والعسكرية (من القلاع والاسوار)، والمدنية (من القصور والبيوت والفنادق والمنازل)، والجنائزية (من المقابر والمشاهد). أما النوع الثانى (أى الزخرفى) فهو

---

(١) ومن اهم الدراسات الاوربية فى النقود الإسلامية تلك التى قام بها "لافواى" فى فهرست النقود المحفوظة بالمكتبة الوطنيه بباريس،وتلك التى قام بها "لين بول" عن النقود الشرفيه المحفوظة فى المتحف البريطانى.

(٢) ومن اشهر من اهتم بذلك ماكس فان برشم فى كتابه المسمى مجموعه النقوش العربية .

يسمى بالفنون الصغرى لانه مساعد للعمارة إذ القصد منه كمالى يتمثل في إضفاء ألوان من الجمال على البناء سواء بالنقش أو الرسم أو الحفر. ويدخل فى نطاق الفنون الصغرى الأدوات المنزلية بأنواعها إلى جانب الملابس وآلات التجميل والزينة.

وتتمثل الاهمية التاريخية للآثار(١) من حيث انها تعطى فكرة صحيحة عن طبيعة العصر الحضارية من الناحية المادية مما يعجز الوصف عن التعبير الصحيح عنها مهما بلغ من الأمانة والدقة. ورغم التنقيب المستمر عن الوثائق والنقود والآثار، ورغم الاهتمام الذى حظيت به حديثا فان ماوجد منها من العصور الاسلامية بعامة ومن عصر صدر الاسلام بخاصة لا يكفى لكتابة تاريخ موثق لهذه الفترة.

وهكذا لا تبقى امامنا الا كتب المؤرخين القدماء من معاصرين ومتاخرين.

٥- وأول الكتب التى يرجع اليها هو القرآن الكريم دستور الإسلام والمسلمين ويرجع الفضل فى الحفاظ على القرآن دون تغيير أو تبديل الى انه لم يكتف بحفظه فى صدور المسلمين الأولين بل أنه دون على الرقاع وقطع الجلود والسعف، فقد اتخذ النبى كتاباً لكتابه الوحى (ومنهم معاوية ابن أبى سفيان) هكذا بدأ جمع القرآن منذ نزوله ولكنه جمع بشكل نهائى على أيام الخليفة عثمان بن عفان عندما ظهرت بعض القراءات المختلفة نتيجة لعدم النقط والشكل فى الكتابة بصفة خاصة.

---

(١) ومن اهم كتب الآثار الإسلامية مؤلفات الاستاذ "كرسوبل" فى العمارة الاسلامية إلى جانب كتابه القيم فى مصادر الآثار الاسلامية،القسم الخاص بالعمارة،وفى الفنون الصناعية الإسلامية نذكر كتاب الاستاذ"ميجون"

والقرآن يحتوى على ١١٤سورة، وكل سورة تنقسم الى آيات وتنقسم الآيات الى مكية ومدنية. والآيات المكية لها صفات خاصة، فمن حيث الشكل يلاحظ انها قصيرة، ومن حيث الموضوع يلاحظ أنها تعالج الدعوة إلى الدخول فى الإسلام، وتَعِد المؤمنين بجنات النعيم بينما ترهب الكافرين بنار الجحيم. أما عن الآيات المدنية فإنها تعالج كل أسباب حياة الجماعة الاسلامية فى المدينة من دينية ودنيوية وهى على الجملة تعالج الحياة العامة والخاصة للمسلمين.

هذا ولما كانت الآيات القرآنية نزلت تباعاً على مدار أكثر من عشرين سنة (إلى وفاة الرسول) فإنها تعالج الأحداث التى عرفها العصر النبوى مما يترتب عليه أنه لا يمكن دراسه حياة الرسول ﷺ بدون دراسة القرآن الكريم، ولما كان الرسول هو النموذج المثالى للرجل العربى والمسلم، ولما كان القرآن هو دستور دولة الاسلام فانه مصدر أساسى لكل عصور التاريخ الاسلامى.

٦- **مجموعات الاحاديث:** وهى تعرف أيضا بالسنن ولو أنه يمكن التفرقة بين الاحاديث وبين السنن: فالاحاديث هى أقوال الرسول بينما السنن هى نهج الرسول فى حياته اليومية أى أنها أعماله. وأشهر مجموعات الأحاديث: صحيح البخارى (توفى ٢٥٦هـ/٨٧٠م)، وصحيح مسلم (توفى ٢٦١/٨٧٥م) (وهما الصحيحان). وسنن أبى داوود (توفى ٢٧٥هـ/٨٨٨م)، وسنن الترمذى (توفى ٢٧٩هـ/٨٩٢م) وسنن النسائى (توفى ٣٠٣هـ/٩١١م) وسنن ابن ماجه (توفى ٢٧٣هـ/٨٨٦م). ومجموعات الأحاديث لا ترقى من حيث الأصالة والصحة إلى مرتبة القرآن، وذلك انها لم تدون -بشكل عام- إلا منذ القرن الثاني الهجرى على أيام العباسيين. وكان السبب فى تدوينها ظهور أعداد كثيرة من

الأحاديث المصطنعة بهدف إضفاء الصفة الشرعية علـــى أغـــراض أو مصالح أنانية، وذلك بعد الانقسامات السياسية والمذهبية والعنصرية التى أخذت تعانى منها دولة الاسلام.

ولمحاولة معرفة الأحاديث الصحيحة من الموضوعة قام علم الحـــديث ووضعت قوانينه النقدية التى ترمى إلى تحقيق النص أو المتن عن طريـــق ضبطه إلى جانب تحرى صحة الإسناد. ويتم ذلك بفـــضل طريقـــة الجـــرح والتعديل: اذ الشرط أن يكون المسندون أى سلسلة الـــرواة ممـــن يتـــصفون بالعدالة وهى النزاهة والسمو فوق مستوى الشبهات.

ولما كانت الأحاديث والسنن تتناول كل كبيرة وصـــغيرة فـــى حيـــاة الرسول ﷺ العامة والخاصة وهو النموذج للرجل العربى المسلم، نجد أنهـــا تشتمل من بين ما اشتملت عليه على التفسير النظرى لآيات القرآن والتطبيق العملى لكل قواعد الاسلام. ولكل هـــذا اهـــتم علمـــاء المـــسلمين بالحـــديث وتخصصوا فى دراسته حتى اصبح علما قائما بذاته وتفرع عنه ماعرف باسم علم الفروع الذى استغرق فيه الفقهاء استغراقا شـــغلهم بتفـــصيلات الحيـــاة اليومية ودقائقها وأبعدهم شيئا فشيئا عن دراسة القرآن وتفسيره حتـــى قـــال بعض الدارسين (المستشرقين). "اذا كان القرآن لا يستغنى عن الحديث فـــان الحديث يمكنه ان يستغنى عن القرآن، وهذا قول يجانبه الصواب، حيث أ ن القرآن الكريم هو المصدر الإلهي الأول للتشريع الإسلامي الـــذي لا يمكـــن الإستغناء عنه أبداً.

٧- **السيرة:** ويأتى بعد الحديث سيرة الرسول ﷺ التى اجتذبت الدارسين منذ وقت مبكر بصفة الرسول ﷺ -صاحب السيرة- المثل الأعلى للرجـــل المسلم- كما سبق أن أشرنا. والحقيقة أن قدامى أصحاب السيرة هم الذين مهدوا الطريق لأصحاب الحديث فى العصر العباسى وانه يمكن اعتبارهم

المحدثين الأوائل، وأقدم أصحاب السيرة هو ابن اسحق (توفى سنة ١٥١هـ/٧٦٨) وهى السيرة التى كتبت ايام المنصور ووصلتنا منسوبة لابن هشام (توفى سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م).

فلقد أخذ ابن هشام السيرة النبوية لابن اسحق ونقحها فرفع منها ما رأى عدم صحته وخاصة من الشعر (الجاهلى) ووضعها فى القالب الذى هى عليه الآن حتى أصبحت تنسب اليه دون صاحبها الأول وهو ابن اسحق.

٨- **المغازى:** ومن بين السيرة النبوية اهتم كثير من العلماء بمغازى الرسول ﷺ (أى أعماله العسكرية) بصفة خاصة والمثل لذلك مغازى الرسول للواقدى (توفى سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م)، ثم أنهم أكملوها بفتوحات المسلمين فى المشرق والمغرب. وبذلك ظهر أول نوع من الأدب التاريخى العربى (الاسلامى) فى شكل المغازى أو الفتوح، والذى يستمر عادة فى سرد الأحداث التاريخية إلى عصر المؤلف، والذى قد يتناول موضوعات أخرى غير الفتوح، ربما كان من أهمها النظم المالية التى عرفتها الدولة الاسلامية على أيام العباسيين، على أساس أن ترتيبها ينبنى ابتداء على طريقة الفتح وهل كان "عنوة" أم "صلحا" ومن كتب المغازى ما هو عام فيتناول التوسع الاسلامى فى كل الأقاليم، ومنها ماهو خاص لفتح اقليم من الأقاليم.

ومن أشهر كتب المغازى العامة كتاب البلاذرى (توفى ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، المعروف بفتوح البلدان الذى وصلنا فى شكل مختصر. فالكتاب يتناول الفتوحات الاسلامية بشكل سريع لانعهده فى غيره من كتب الفتوح. ورغم ذلك فالبلاذرى يظهر فى هذا الكتاب كمؤرخ ثقة يعتنى بدقة الاسلوب ويراعى النقد وتحرى الحقيقة. والى جانب أهمية الكتاب بالنسبة للتوسع

الأقليمى للدولة العربية فانه يحتوى على تفصيلات كثيرة توضح تطوير النظم والادارة والتشريع والاقتصاد خلال القرون الأولى للدولة الاسلامية.

وأغلب الظن انه كتاب البلاذرى الذى سماه بفتوح البلدان الصغير بعد أن اختصر كتابه الأول الذى سماه بفتوح البلدان الكبير. وفى كتاب المغازى التى وصلتنا والمنسوبة الى الواقدى كتاب فتوح مصر والشام (وهو اسم كتاب لابن اسحق صاحب السيرة) وكتاب فتوح افريقية الذى وصلنا فى شكل رواية اسطورية.

ومن مشاهير كتاب المغازى المدائنى (توفى٢٥٥هـ/٨٦٩م) الذى تنسب اليه كتب لفتوح كثير من البلدان والتى لم يصلنا للاسف منها إلا بعض القطع فى كتب الذين نقلوا عنه ممن أتوا بعده من الكتاب. ومن كتب المغازى الاقليمية التى وصلت الينا كتاب فتوح مصر والمغرب والاندلس لعبد الرحمن بن القوطية (توفى فى القرن العاشر الميلادى) وأخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤرخ مجهول من كتاب القرن الرابع الهجرى.

٩- أما كتب التاريخ العام -وعليها أكثر الاعتماد- فأشهر ماوصل الينا منها، هو:

- كتاب الطبرى المعروف بتاريخ الأمم والملوك (أو تاريخ الرسل والملوك). وذلك بفضل غزارة مادته ونزاهة وحياد مؤلفه حتى أصبح النموذج للتواليف التاريخية الاسلامية الأولى. والكتاب يتناول العالم منذ بدء الخليفة وتاريخ الدولة العربية الاسلامية خلال القرون الثلاثة الأولى والنسخة التى وصلتنا منذ مطبوعة فى حوالى عشرة أجزاء كبيرة هى اختصار الكتاب الذى كان يبلغ هذا القدر عشر مرات فى صورته الأولى، والذى ضج طلبة الطبرى من طوله واسهابه حتى اضطر شيخهم الى اختصاره.

وطريقة الطبرى فى سرد الاحداث هى طريقة السنويات أو الحوليات. أما طريقته فى الرواية فهى طريقة المحدثين التى تعتنى بوضع الإسناذ قبل الرواية. والطبرى من رجال الدين الذين اشتغلوا بعلوم القرآن والحديث وأن كانت شهرته قد ذاعت الآن كمؤرخ فان شهرته مازالت ذائمة كمفسر، بفضل تفسيره للقرآن المعروف باسمه، والذى وصل الينا دون غيره من وتواليف الطبرى فى الحديث والشريعة.

والطبرى كرجل دين ورع: عندما يعرض للحادثة يعطى جميع الروايات بأسانيدها التى ترجع الى شهود العيان دون أن يرجح رواية على أخرى تاركا ذلك للقارىء الباحث. والكتاب من هذا الوجه صعب فهو ثروة تاريخية هائلة. ولكنه أشبه بمجموعات من البطاقات (الأضابير) يقدمها الطبرى للمؤرخ المحقق لكى يقابل بينها ويحاول معرفة الصحيح منها من غير الصحيح، ويرجح مايرى ترجيحه، حسب قواعد النقد وأصول المنهج التاريخى.

- وبعد الطبرى نذكر ابن الأثير (توفى ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) وكتابه المعروف بالكامل فى التاريخ الذى ينتهى بحوادث سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م. ويعتبر الكامل من أهم مراجع تاريخ المشرق بل والتاريخ الاسلامى على وجه العموم. وذلك بفضل ما اتصف به ابن الاثير من ملكة المؤرخ الموهوب الذى يعتنى بالنقد وتمحيص الروايات. وهو فيما يتعلق بتاريخ القرون الثلاثة الأولى يعتمد على تلخيص كتاب الطبرى ولكن يعرضه للنقد ويستغنى عن الإسناد ويرجح مايراه صحيحا من الروايات على غيره. ويكمل مافيه من النقص، وهو لكل ذلك يعتبر مرجعا أساسيا لأقدم عصور التاريخ الاسلامى.

ورغم أن الكتاب يسير على طريقة الحوليات- مثله مثل الطبرى - إلا أنه عالج عيوب هذه الطريقة التى تفقد الموضوع وحدته- فـإلى جانـب أحداث كل سنة يحاول أن يعطى فكرة عامة عن الموضوع جميعا عند بداية ذكره فى أول سنواته. وبناء على ذلك فكتاب الكامل يعتبر ذروة مـن ذرى تطور التأليف التاريخى عند العرب.

ومع أن ابن الأثير يهمل ذكر مراجعه فى كثير من الأحيـان إلا أن معظم مصادره معروفة، وهى عادة ذات قيمة كبرى تؤكد الثقة فى روايتـه جميعا. ولقد أدت المكتشفات الحديثة الى تأكيد الثقة فى روايات ابن الأثيـر سواء ماكان منها متعلقا بتاريخ المشرق أو تاريخ المغرب. ولذلك أصبح ابن الأثير مصدرا هاما ينقل عنه المتـأخرون كمـا فعـل أبـو الفـدا (تـوفى ٧٣٢هـ/١٣٣١م) فى كتابه المختصر فى تاريخ البشر، وكمـا فعـل ابـن خلدون وخاصة فى الأجزاء الخاصة بالمشرق من تاريخه "العبر". ولقد اهتم المستشرق الفرنسى فانيان بجمع المادة الموجودة فـى كتـاب ابـن الأثيـر والخاصة بتاريخ المغرب والاندلس وترجمها بعنـوان: حوليـات المغـرب والاندلس.

- ويعتبر كتاب ابن خلدون (توفى٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، وهـو كتـاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى اخبار ملوك العرب والعجـم والبربـر،من المصادر المهمة للتاريخ الاسلامى بشكل عام وإن كانـت أهميـة الأجـزاء الخاصة بالمغرب منه أهم. ويرجع الفضل فى شهرة "عبر" ابن خلدون إلـى مقدمة الكتاب التى تكوّن جزءا مستقلا يعتبر كتابا قائما بذاته.

ففى هذه المقدمة فهم ابن خلدون التاريخ كما ينبغى أن يُفهـم، إذ رأى الحدث التاريخى يتكون نتيجة لتفاعل العديـد مـن العوامـل ذات الطبيعـة

المتنوعة من: سياسية وجغرافية وبيئية واجتماعية واقتصادية، بل انه لم يهمل العوامل النفسية أيضا. وهو لهذا السبب يتكلم فى كل هذه الفنون فى مقدمته مما جعل الكثير من الباحثين يعتبرونه مؤسس علم الاجتماع الحديث.

ويظهر ابن خلدون كمؤرخ نابه بفضل النظريات التى يسجلها فى هذه المقدمة والتى استخلصها من دراساته العميقة وتجاربه الخاصة واتصاله بدول المغرب والاندلس التى عاصرها (من الحفصيين فى تونس الى بنى عبد الودود فى الجزائر والمرينيين فى المغرب الأقصى وبنى نصر فى غرناطة). فهو يرى أن الدول كالأفراد تمر بثلاث مراحل: تبدأها الطفولة وتتوسطها الفتوة والشباب وتنهيها الشيخوخة، بل إنه حاول أن يحدد للدول أعمارا تماما مثل الأفراد الذين يحدد أعمارهم بما يسميه بالجيل ومتوسطة ٤٠ عاما بالنسبة لأجيال أمم العرب.

وهو أيضا ينص على أن العصبية هى ركيزة الدولة التى بدونها لا تقوم لها قائمة. والعصبية عنده هى روح التآلف والتعاضد بين أفراد الجماعة او القبيلة التى تدفعهم إلى الالتفاف حول الزعيم بغرض فرض سيطرتهم على غيرهم من الجماعات والأقاليم، مما ينتهى بقيام الدولة التى تظل باقية مابقيت عصبيتها هذه متماسكة قوية. فاذا مادب الضعف والوهن فيها كان ذلك ايذانا بنهاية الدولة، وقيام عصبية فتية بتكوين دولة جديدة وهكذا دواليك، وكل ذلك يحدث فى اطار أنواع الملك سواء كان دينيا أو عقليا أو طبيعيا.

وإلى جانب النظريات التاريخية ينص ابن خلدون على المنهج التاريخى المبنى على النقد واستخدام المذهب العقلى فى مقابلة الروايات للأخذ بالصحيح منها، وترك ما لايقبله العقل والمنطق. وهو يبين العوامل التى أدت إلى تفشى الأساطير والكذب والاختلاق فى الروايات التاريخية مثل

التحزبات المذهبية والقبلية والاغراض الأنانية، الى جانب دسائس الحاقدين والحاسدين. فهو ينقض التهويلات غير المعقولة فى تاريخ بنى اسرائيل، ويدحض الافتراءات التى افتريت على أعلام الأمويين، مثل معاوية وعبد الملك، وعلى العباسين مثل: الرشيد وأخته العباسة.

ومما تجدر الإشارة اليه أن ابن خلدون عندما أخذ يكتب تاريخه لم يستطع أن يطبق قواعد النقد التى نص عليها فى المقدمة فأتى كتابه فى شكل المؤلفات التاريخية محتويا على الروايات الأصلية الى جانب الروايات التى لا تستطيع الصمود أمام النقد، وإن كان قد تحرى الحقيقة جهده. وهو إن كان قد نقل عن ابن الأثير ما يتعلق بتاريخ المشرق إلا أنه أضاف معلومات لم يوردها ابن الأثير.

– وكتاب المسعودى (توفى٣٤٦هـ / ٩٥٦م) المعروف بمروج الذهب ومعادن الجوهر يعتبر من مصادر التاريخ الإسلامى المهمة ليس لقدمه فحسب، بل لكثرة اطلاع السعودى وسعة معلوماته التى أتت -إلى جانب القراءة والدرس- نتيجة لتطوافه فى مختلف البلدان. اذ طوف المسعودى خلال (٤٠) عاما بفارس والهند والصين وزنزبار والشام ومصر حيث مات بالقسطاط. وبفضل اسفاره ودقه ملاحظاته جمع أخبارا عن البلدان والشعوب والمذاهب والعادات والتقاليد لا نجدها عند غيره من الكتاب. وكان من نتائج تجواله أن تنبه إلى أهمية عامل البيئة فى مسيرة الاحداث السياسية، وهو لهذا السبب يهتم بالجغرافية الطبيعة والبشرية فى مقدمة الكتاب. وهو من هذا الوجه يعتبر النموذج الذى حذا حذوة ابن خلدون فى مقدمته. والحقيقة أن ابن خلدون يعترف بفضل المسعودى ويقدر كتابه ويسجل انه نهج منهجه.

ومع ان المسعودى من قدامى المؤرخين الذين اتبعوا طريقة الحوليات الا أنه يمزج بين هذه الطريقة وبين الترتيب الموضوعى. فهو يفرد بابا او

كتابا لكل دولة ويخصص فصلا لكل أمير أو حادثة، فلا يفقد الموضوع وحدته. وهو كما قلنا لا يهتم بالتاريخ السياسى فقط بل يجنح إلى وصف حياة الناس، وخاصة أفراد الطبقة العليا فى المجتمع، من: الخلفاء وكبار الدولة ومشاهير العلماء والشعراء وغيرهم. وهو يهتم أيضا بالقصص الشعبى ولا يهمل الروايات الطريفة والاسطورية.والمسعودى فوق كل ذلك يعطى نوعا من الحياة والطرافة التاريخية، وإن كان بمنهجه هذا يخرج على أصول البحث وتحرى الحقيقة. ولهذا السبب ورغم القيمة التاريخية الكبيرة لمعلوماته فانها ينبغى أن تؤخذ بشىء من الحذر، وأن تخضع لقواعد النقد.

ولكثرة المعلومات الجغرافية التى يحويها كتاب مروج الذهب فانه يوضع بين كتب المكتبة الجغرافية العربية أحيانا ولو أن للمسعودى كتاب خاص فى الجغرافية هو "كتاب التنبيه والإشراف". ولكثرة المعلومات الأدبية واهتمام المسعودى بالشعر يوضع الكتاب بين المؤلفات الادبية. والحقيقة ان الكتاب موسوعة كبرى تعالج فى ثناياه الكثير من العلوم والفنون الى جانب التاريخ والجغرافية.

١٠- هذا ويمكن أن نضيف الى كتب التاريخ العام مؤلفات المؤرخين المصريين مثل المقريزى (توفى ٨٤٥هـ/١٤٤١م) فى كتابه الخطط والسيوطى (توفى ٩١١هـ/١٥٠٥) فى كتابه تاريخ الخلفاء، إلى جانب أصحاب الموسوعات التاريخية الجغرافية والأدبية مثل القلقشندى (توفى ٨٢١هـ/١٤١٨م) فى كتابه "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا" والنويرى فى موسوعته "نهاية الأرب"، والعمرى فى موسوعة مسالك الأبصار.

١١- ومجموعة الكتب الجغرافية العربية مهمة بالنسبة لدارس التاريخ الإسلامي وذلك للصلة بين التاريخ والجغرافية عند القدماء. فالجغرافية

العربية عندما استقلت عن التاريخ ظلت وثيقة الصلة به فاحتفظت كتب الجغرافيا بالكثير من المعلومات التاريخية، كما ظل الجغرافيون العرب يكتبون فى التاريخ والجغرافية جميعا. والمثل لذلك: اليعقوبى وأبو الفدا.

وفيما يتعلق بالمعلومات الجغرافية فهى تنقسم الى نوعين رئيسين: موضوعات علمية، وهى: الخاصة بالأطوال والعروض وتقويم البلدان. والوصفية وهى: الخاصة بالمسالك والممالك وصورة الأرض. والنوع الثانى هو الذى يهمنا بطبيعة الحال فهو الذى يصف البيئة الطبيعية التى كانت مجالا للأحداث. وهذا يمكن أن يساعد على تفسير مسيرة الأحداث والطريق الذى سارت فيه.

وكتب الجغرافيا تحتوى الى جانب الوصف الطبيعى -على معلومات عن الثروات الزراعية والمعدنية ومختلف خيرات البلاد، كما تحوى معلومات عن الشعوب وعاداتها وتقاليدها. وكذلك عن الديانات والمذاهب والنشاط الفكرى والأدبى مما لاغنى للمؤرخ الحديث.

ولقد عرف الاوربيون ما للكتب الجغرافية العربية من أهمية ، فنشر عدد وفير منها فى مجموعة تحمل اسم "المكتبة الجغرافية العربية" بإشراف المستشرق دى غوية.

ومن أقدم الجغرافيين العرب ابن خرداذبة (توفى حوالى ٣٠٠هـ/ ٩١٢) الذى شغل وظيفة "صاحب البريد" وهو المشرف على الطرق وما بينها من محطات لخيل البريد، وكانت اختصاصاته أشبه باختصاصات رئيس المخابرات فى أيامنا هذه، اذ كان عليه أن يمد ديوان الخلافة باحوال الاقاليم، وما هى عليه من الاستقرار أو الاضطراب، وكذلك أحوال الخصب والقحط لكى تتخذ الحكومة المركزية ماتراه بالنسبة لتقدير الخراج أو مايجب عليها

إزاء الأقاليم التى تحتاج الى العون. وهذا يعنى أن ابن خرداذبة كـان فـى مركز يسمح له بمعرفة أحوال الأقاليم مما سمح له بتدوين معارفه ومعلوماته لينتفع بها المشتغلون بالوظائف الديوانية، فكتب "كتاب المسالك والممالك" الذى أصبح عنوانا لنـوع خـاص مـن الادب الجغرافـى، مثـل: كتـاب "الإصطخرى" المسمى بالمسالك والممالك، وكتاب "البكرى" الذى يحمل نفس الاسم.

ومن قدامى الجغرافيين اليعقوبى (توفى نهاية القرن الثالث هـ/٩م) وكتابه "البلدان"، وابن الفقيه (توفى أواخر القرن ٣هـ/ ٩م) وكتابه "الاعلاق النفيسة" أو "العلق النفيسى"، وقدامة بن جعفر (توفى ٣١٠ هـ/٩٢٢م) وكتابه الخراج وصفة الكتابة والهمذانى (توفى٣٣٤هـ/٩٤٥م) وكتابه "صفة جزيرة العرب"، والمقدسى (الذى توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى /١٠م)، وله كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم الذى يعتبـره الـبعض النموذج أو المثال لكتب الجغرافية العربية، بفضل حسن تبويبه وترتيبه ودقة اختياره للمعلومات المفيدة.

١٢- ويضاف الى المكتبة الجغرافية كتب الرحلات وخاصة الكتـب التـى تصف مكة والمدينة وكتبت من أجل الحج اذ لا يخلو كتاب منهـا مـن أخبار المدينتين للمقدستين فى العصر النبوى وصدر الاسلام، وحتى وقت كتابة المؤلف ومن هذه الكتب "كتاب أخبار مكة للأزرقى ووصف مكـة والمدينة فى كتاب الاستبصار فى عجائب الأمـصار (مـؤرخ مغربـى مجهول)، ورحلة ابن جبير، ورحلة العبدرى ورحلة البلوى ورحلة ابـن بطوطة، ومنها: كتاب التبر المسبوك فيمن حج الى بيت الله من الملـوك للمقريزى.

ونختم مجموعة كتب الجغرافية بالقواميس الجغرافية التى تمثل تمام علم الجغرافية عند العرب، وانتهاء عصر الاضافة والابتكار، والاتجاه نحو تنظيم المعلومات وترتيبها حتى يسهل تناولها. وأهم النماذج هو كتاب معجم البلدان لياقوت.

١٣- ونشير بعد ذلك الى كتب التراجم والسير التى تعرف أيضا بكتب الطبقات، وهى أشبه بالقواميس التاريخية: اذ تعالج التاريخ على أساس الأشخاص وما دار حولهم وليس على أساس الأحداث. والنوع المعروف بالطبقات من هذا الأدب التاريخى تتخذ الترتيب الزمنى أساساً لها بينما نوع السير والتراجم تتخذ الترتيب الأبجدى إطارا لها، فهى من هذا الوجه -أشبه بالمعاجم وميزة هذه الكتب انها تهتم بالأخبار الإجتماعية والثقافية أكثر من اهتمامها بالأخبار السياسية، فهمى مكملة للتاريخ السياسى. وأقدم كتب الطبقات هو "الطبقات الكبرى" لابن سعد تلميذ الواقدى صاحب السيرة، وهو يعالج -الفترة الاولى من العصر النبوى وصدر الاسلام- أما أشهر كتب التراجم فهو "كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لابن خلكان (توفى ٦٨١هـ/١٢٨٢م). والكتاب كما يفهم من عنوانه يهتم بتراجم أهل الطبقة الممتازة فى المجتمع، ولكنه لا يقصر اهتمامه على رجال السياسية بل يترجم أيضا لغيرهم، من: رجال الدين والعلم والادب والشعر بل وغيرهم من النابهين من طبقات الناس (الشعب). والكتاب من هذا الوجه يعتبر موسوعه كبرى تحوى معلومات ذات طبيعة متنوعة. وان كان ابن خلكان لا يذكر مراجعه الا فى بعض الاحيان، الا أنه مؤرخ موثوق من روايته، ولكل ذلك يعتبر كتابه النموذج لهذا اللون من الأدب التاريخى.

ولقد عمل ابن شاكر الكتبى على سد النقص فى كتاب ابـن خلكـان بكتابه الذى سماه "فوات الوفيات" أى ذكر ما فات أو ما سقط مـن وفيـات الاعيان، كما أكمله حتى أيامه.

وتأتى كتب الطبقات الخاصة التى تعالج جماعات خاصة من النـاس لتكمل كتب السير العامة ولدينا نماذج متنوعة من هذا النوع الخـاص مثـل طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، ومعجم الأدباء لياقوت، وطبقات الصوفية للقشيرى، وطبقات أصحاب المذاهب المختلفة، مثل: طبقات المالكية. وطبقات الشافعية. وذلك دون ذكر كتب الطبقات الاقليمية الخاصة، وبطبيعة الحال فان هذه الكتب المتأخرة -فى معظمها- تترجم للرجال منذ العصور الأولى للدولة الاسلامية وحتى أيام مؤلفيها.

١٤- ومن الكتب المهمة أيضا مجموعة الكتب التى تعالج تـاريخ الأديـان والتى تتناول -بصفة خاصة- المذاهب الاسلامية والمثال لذلك النـوع، هو: كتاب ابن حزم الاندلس (القرطبى) (توفى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م) المعروف بالفِصل فى الملل والأهواء والنحل، وكتاب الشهرستانى (توفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م) الذى يكاد يحمل نفس العنـوان، وهـو: "المِلـل والنِحل"، وكتاب البغدادى، وهو: "الفرق بين الفرق".

هذه الكتب تتكلم فى فرق الاسلام المختلفة، من: الشيعة والخـوارج والسنة وطوائف كل فرقة منها. ولما كانت جماعات غير المـسلمين، مـن: اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وغيرهم تعيش فى كنف دول الإسلام وجبت معرفة أصول دينهم لتقرر الدولة موقفها منهم، سواء فى أمور المـال والضرائب أو فى شئون القضاء والتحكيم، ولهذا تكلم أصحاب هذه الكتب فى نحلهم ومذاهبهم وبينوا مدى اتفاقهم واختلافهم.

١٥- ونشير بعد ذلك الى الكتب التى تتناول تاريخ النظم والادارة وأصول الحكم. وأشهرها كتاب "الاحكام السلطانية" لقاضى بغداد الماوردى (توفى ٤٥٠هـ/١٠٥٧م) الذى يعالج نظم الدولة من الخلافة الى الوزارة والقضاء وولاية الجيش والاقاليم وجباية الضرائب وغير ذلك. وأهم فصول الكتاب هو الخاص بالخلافة التى يعتبرها الماوردى عقد بين الشخص المرشح للمنصب الرئاسى وبين جماعة المسلمين الذين يمثلهم أهل الحل والعقد. وتتلخص أهمية الكتاب فى أنه يستند فى تقنينه للنظم على السوابق التاريخية.

١٦- وأخيرا نذكر كتب الأدب التى تحوى كثيرا من المعلومات التاريخية، الى جانب تأريخها للحياة الثقافية. ومن أهم نماذجها كتب الجاحظ الذى يعتبر أديب العربية بلا منازع والذى ضمن كتبه الادبية معلومات موسوعية تمثل كل فنون الثقافة العربية. ومن أشهر كتبه "البيان والتبيين" وكتاب "البخلاء" إلى جانب رسائله العديدة. ومن كتب الأدب المفيدة كتاب "الاغانى" لأبى الفرج الاصفهانى الذى يصور مجتمع الطبقة الراقية التى اشتغلت بالشعر والغناء والموسيقى، والذى يحتوى على معلومات تاريخية قيمة عندما يترجم لكثير من الشخصيات التى تناولها. ومن كتب الادب "العقد الفريد" لابن عبدربه، وأخيرا نذكر قاموس ياقوت المعروف بمعجم الادباء.

أما دواوين الشعر فتتخلص أهميتها فى أن الشعر يمثل أقدم النصوص التى تمدنا بالمعلومات عن الحياة فى جزيرة العرب فى العصر الجاهلى وفى صدر الاسلام، وتبين كيف تطورت هذه الحياة فى العصور الإسلامية التالية. فهو يعبر عن حياة الناس وما كان يشغل اهتماماتهم على

عكس الوثائق أو مدونات الكتاب الرسميين الذين اعتنوا بوصف الحياة الرسمية. ومن الأقوال المأثورة لابن عباس أن الشعر ديوان العرب.

ومن أهم الاشعار معلقات الجاهلية وقصائد المخضرمين ودواوين شعراء العصر الاموى مثل: الأخطل وجرير والفرزدق، ثم دواوين شعراء العصر العباسى، مثل : البحترى وأبى نواس والمتنبى وغيرهم.

ثانيا : مصادر تاريخ عمان

ومن الأهمية بمكان أن نلقى الضوء على مصادر التاريخ العمانى حيث أن هذا الكتاب يمزج بين تاريخ عُمان وعصر النبوة والخلافة الراشدة بطريقة منهجية محددة توضح علاقة الجزء بالكل، وتأثير الكل على الجزء.

والواقع أن دراسة تاريخ عُمان فى العصر الاسلامى يحتاج الى قدر كبير من الصبر والمثابرة، فالوثائق التاريخية التى يمكن الاعتماد عليها قليلة، بل نادرة فى بعض الفترات، مما دفع بعض المؤرخين الحديثين الى الزعم بأن المؤرخين المسلمين قد أهملوا عن عمد ذكر تاريخ عمان فى كتبهم وموسوعاتهم التاريخية لأسباب مذهبية[1]، وهذا الزعم فى اعتقادنا يجانبه الصواب.

فمن البديهيات أن اهتمام المؤرخين القدماء من أصحاب كتب التاريخ العام والموسوعات كان يتجه الى مركز الأحداث فى عواصم الخلافة الإسلامية سواء كانت فى المدينة أو دمشق أو بغداد أوغيرها من العواصم الإسلامية، ثم تتسع دائرة اهتمامهم بعد ذلك لتسجيل مايجرى من أحداث فى

---

(١) أنظر: رجب عبد الحليم، العمانيون والتجارة والملاحة، مسقط ١٩٨٩، ص٥.

الولايات الإسلامية المختلفة عندما يكون لذلك علاقة بمركز الأحداث، ويؤكد ذلك ما نلاحظه من انه فى المرات القليلة التى تعرضت فيها عمان لحملة من حملات الخلافة، لم تغفل المصادر ذكر هذه الحملات وما تبعها من أحداث دون إهمال متعمد وإعراض مقصود كما يزعم البعض[1].

ومن الجدير بالملاحظة أنه بجانب مؤرخى التاريخ العام، برز فى نفس الوقت ما يعرف بالتاريخ المحلى فى معظم الأقطار والمدن الاسلامية حتّى تلك التى كانت بها عواصم الخلافة فى بعض الأوقات، فقد كثرت المؤلفات المحلية التى تناولت تاريخ بغداد ودمشق والقاهرة، وتاريخ اليمن والموصل والمغرب والأندلس وبخارى .. وغيرها كثير ولكننا للأسف لا نصادف مثل هذه التصنيفات عن تاريخ عمان الإسلامى إلا فيما ندر، وغالبا لا يمكن ادراج ما وجد منها بين كتب التاريخ، بل ينضوى تحت باب الفقه واللغة والأنساب وتأتى الاشارات التاريخية عرضا دون استيفاء يشفى غليل الباحث.

ويجب هنا ألا نغفل احتمال أن تكون بعض المصادر التاريخية العمانية قد فقدت لسبب أو لآخر، وقد أدرك ذلك بعض المؤرخين العمانيين فى العصر الحديث الذين أشاروا فى مؤلفاتهم إلى افتقادهم للمصادر القديمة لتاريخهم المحلى، فيذكر الشيخ سالم بن حمود ابن شامس السيابى فى مقدمة كتابه "عمان عبر التاريخ" مايعبر عن هذا بقوله: "فهذا تاريخ عمان .. وهذا ما حصلنا عليه .. لأنه غالباً لم يدون، وما دون منه لم ينشر ولم يتبين، ولكن بعض ما وجدناه، ربما أغنى عما فقدناه .. ومن أين لنا أن ندرك المفقود من تاريخ عمان[2].

---

(١) أنظر: رجب عبد الحليم، المرجع السابق، ص٦.

(٢) أنظر: سالم بن حمود شامش السيابى، عمان عبر التاريخ، طبع وزارة التراث العمانية، ١٩٨٢م، ج١، ص٥.

أما المؤرخ العمانى المشهور نور الدين السالمي (ت ١٩١٣م) فقد لاحظ الندرة الشديدة فى مصادر التاريخ العمانى، وعلل ذلك بقوله "لم يكن التاريخ من شغل الأصحاب، بل كان اشتغالهم بإقامة العدل وتأثير العلوم الدينية .. فلذلك لا تجد لهم سيرة مجتمعه ولا تاريخا شاملا"[١]. وهكذا يعترف السالمى بأن اهتمام علماء عمان قديماً كان منصباً على العلوم الدينية، وشرح تعاليم المذهب الأباضى، وهذا عندهم أهم من تسجيل الأحداث التاريخية. ويؤكد صاحب كتاب كشف الغمة هذا المعنى المذهبي الذي دفعه لتأليف كتابه فيقول: "لما رأيت أهل زماننا قد غفلوا عن أهل مذهبهم الشريف، .. جعلت ظاهره فى القصص والأخبار، وباطنه في المذهب المختار"[٢].

وهكذا يتضح أن اهتمام المؤرخين المحليين فى عمان كان منصباً على العلوم الدينية وشرح تعاليم المذهب الأباضي، مما أوجد ندرة فى المصادر التاريخية التى تتناول تاريخ عمان، ولا شك أن هذه الندرة تدفع الباحث إلى الاعتماد على الإشارات التي وردت فى المراجع المحلية الحديثة والتى غالباً ما تتكرر نصوصها من مرجع إلى آخر، ولكنها تختلف فى رواياتها أحياناً مع ما أوردته مصادر التاريخ الاسلامى لدوافع قومية أو مذهبية، فكان لا مناص علي الباحث من التمحيص والمقارنة، وتطبيق منهج البحث بدقة حتى يمكن ألقاء الضوء على القضايا الرئيسية فى تاريخ عمان فى الفترة موضوع الدراسة بحثاً عن الحقيقة والاقتراب منها قدر الإمكان.

---

(١) انظر: نور الدين اتلسالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان (طبعة القلعة بمصر) بدون تاريخ، ص٤.

(٢) انظر: كتاب تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، المنسوب إلى سرحان بن سعيد الأزكوي العماني، تحقيق عبد المجيد القيسي، القاهرة ١٩٨٠، ص٩، ١٠.

الفصل الأول

أحوال مكة وعُمان قبيل الإسلام

أولاً : أحوال مكة.

١ـ حادثة الفيل.

٢ـ تجارة مكة.

٣ـ الحالة الدينية.

ثانياً : أحوال عُمان

١ـ الموقع الجغرافي .

٢ـ النشاط التجاري والبحري.

٣ـ الأوضاع السياسية.

٤ـ الحالة الدينية.

الفصل الأول
أحوال مكة وعمان قبيل الإسلام

أولاً - أحوال مكة

إحتفظ إقليم الحجاز باستقلاله منذ أقدم العصور فلم تتمكن القوى المتصارعة فى ذلك الوقت ممثله فى الفرس والروم والأحباش من غزوه وإخضاعه لسيطرتهم، ولعل ذلك راجع إلى وعورة مسالكه وصعوبة الحياة فيه لجفاف معظم أراضيه وعدم صلاحيتها للزراعة، فى الوقت الذى تعرضت فيه معظم مناطق شبه الجزيرة العربية للغزو الخارجى، فقد تعرضت اليمن لأطماع الحبشة وحكمها أمراء من قبل النجاشى منهم أبرهة الأشرم الذى أراد أن ينتزع الزعامة الدينية من مكة وقام بغزوها ولكنه فشل فى محاولته، ثم تبعهم الفرس فى محاولته دون جدوى ولكن تمكن الفرس من السيطرة على اليمن، واضطربت أحوال اليمن فى القرن السادس الميلادى، كما تعرضت مملكتى الحيرة وغسان للتدهور السياسى ووقعتا فريسة لأطماع الفرس والروم.

وفى أوائل القرن الخامس الميلادى كانت قبيلة قريش قد تبوأت مكان الصدارة بين القبائل العربية بعد أن آلت أمور مكة والبيت الحرام إلى قُصَّى ابن كلاب القرشى الجد الرابع للرسول (ﷺ) ويذكر ابن هشام نقلا عن ابن اسحاق أن قصى قد تمكن من هذا الأمر بعد كفاح طويل ضد اعدائه ومنافسيه وجمع قومه من منازلهم إلى مكة وتملك على قومه وأهل مكة، فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله وقَطَّع مكة رباعا بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم التى أصبحوا عليها.

وكانت القبائل العربية تحج إلى الكعبة حيث توجد حولها أصنام القبائل وفيها صور إبراهيم والمسيح والحجر الأسود الذى يقال أنه سقط من السماء، وكان وجود البيت الحرام فى مكة وقيام قريش على رعايته وتنظيم الحج إليه، واحتشاد العرب فى مواسم الحج يزاولون نشاطهم التجارى والدينى والثقافى، أن تمتعت قريش بتقدير القبائل العربية فى أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتركزت سلطات قريش فى مجموعة من المناصب الدينية والسياسية والاجتماعية كانت تسيطر بها على أمور مكة وأهم تلك المناصب:

١- **دار الندوة:** وهى دار بناها قصى بن كلاب بجانب الكعبة وكان يجتمع فيها أشراف قريش وشيوخها للتشاور فى الأمور التى تهم القبيلة، ولا يحق دخولها والاشتراك فى اجتماعاتها إلا لمن بلغ الأربعين من عمره، وكان لا يُعقد قَران إلا فى هذه الدار، كما كانت تعقد بها الاجتماعات العسكرية التى يسلم خلالها لواء الحرب لمن يقع عليه الاختيار لقيادة الجيش المحارب.

٢- **الراية أو اللواء:** وكانت لقريش راية تسمى (العقاب) تسلم فى حالة الحرب إلى من يقع عليه الاختيار لقيادة الجند، فيكون بمثابة القائد العام للجيش المحارب.

٣- **الحجابة أو السدانة:** ووظيفة صاحبها حجب الكعبة وحمايتها والقيام على خدمتها وبيده مفتاحها فلا تفتح إلا فى وجوده، وكان لصاحب هذا المنصب مكانة مرموقة بين القبائل، لما فى وظيفته من عمل مقدس يتصل ببيت الله الحرام.

٤- **السقاية:** ويتولى صاحب هذا المنصب توفير الماء اللازم لشرب الحجاج فى موسم الحج وذلك لما عرف عن مكة من قلة الموارد المائية، فكانت

تعد لهذا الغرض حياض من الجلد تملأ بالماء من بئر زمزم ليشرب منها الحجاج وتوضع فى فناء الكعبة وغالباً ما كان يُحلى الماء بشىء من التمر والزبيب.

٥- **الرفادة:** وهى عبارة عن هبة كانت تُخرجها قريش من أموالها فى موسم الحج وتوضع تحت تصرف صاحب الرفادة ليصنع منها طعاما يقدم إلى فقراء الحجاج، وقد استحدثت تلك السنة منذ أيام قصى بن كلاب واستمرت حتى ظهور الاسلام وينسب ابن هشام هذه السنة إلى هاشم بن عبد مناف، ويقال أن تسميته هاشم كان يرجع إلى أنه كان يهشم الخبز بمكة لقومه ليصنع منه ثريداً ثم يطعم به الحجاج .

وكان هاشم موسراً، فإذا جاء وقت الحج قام فى قريش فقال: "يا معشر قريش أنكم جيران الله وأهل بيته، وأنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته، وهم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة **ضيفه،** فاجمعوا ما تصنعون لهم به طعاما أيامهم هذه التى لابد لهم من الإقامة بها .. فيخرجون لذلك خَرْجا من أموالهم، كل امرئ بقدر ما عنده فيصنع به للحجاج طعام حتى يصدروا عنها". ورغم أن الفقرة السابقة التى أوردها ابن هشام قد توحى بأن الرفادة كانت تقدم لجميع الحجاج، إلا أنه من المعتقد أنها كانت تقدم فقط إلى ذوي الحاجة منهم.

وكان هناك عدد آخر من المناصب موزعة بين رجالات قريش وشيوخها كان بعضها غير ذى أهمية ولكن يبدو أن الهدف منها إرضاء كل بطون قريش وأشرافها لمنع ما قد يحدث من منافسة بين العائلات حول المناصب، ورغم هذا فإن الرغبة فى الاستئثار ببعض المناصب المهمة خلق فى بعض الأحيان العداوة بين فروع قريش، كما حدث بين هاشم بن عبد مناف الجد الثانى للرسول (ﷺ) وابن أخيه أمية بن عبد شمس الذى نافس

عمه فى الزعامة على قريش معتمدا على ثرائه مما أوجد البغضاء بين البيت الهاشمى والبيت الأموى واستمر فيما تلى ذلك من سنين.

١- حادثة الفيل:

ظلت قريش تحظى بتقدير واحترام القبائل العربية، وفى عهد عبد المطلب جد الرسول (ﷺ) تمت بعض الأعمال المهمة كان الهدف منها خدمة القبائل وتسهيل الحج إلى الكعبة، فأعاد حفر بئر زمزم سنة ٥٤٠م، وفى أيامه تعرضت مكة لغزو إبرهة الأشرم الحبشى (سنة ٥٧١م) الذى قاد جيشاً لمهاجمة المدينة المقدسة جعل فى مقدمته الفيلة، ويروي ابن هشام أن أبرهة بعد أن سيطر على اليمن وأصبحت خاضعة لسلطانه وقضى على منافسيه، أراد ان يرضى أمبراطور الحبشة، فبنى بصنعاء كنيسة ضخمة لم ير مثلها فى زمانها بشىء من الأرض، ثم كتب إلى النجاشى: "أنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب".

وتناقل العرب خبر هذا الكتاب، فغضب أحدهم وهو من كِنَانة لقول إبرهة، فخرج حتى أتى الكنيسة فقعد فيها: يعنى أحدث فيها ثم خرج فلحق بأرضه، فلما علم بذلك أبرهة تساءل عن صاحب هذه الفعلة الشنعاء فقيل له: صنع هذا رجل من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة لما سمع قولك: "أصرف إليها حج العرب" غضب فجاء فقعد فيها، أى أنها ليست لذلك بأهل.

ورغم ما فى قصة العربى هذه من مبالغة تدعونا إلى الشك فى صحتها إلا أنه من الصعب قبول الرأى القائل بأن إبرهة قد اختلق هذه القصة ليجد مبرراً لغزو مكة، فما كان أبرهة بحاجة إلى مثل هذا التبرير ليقوم بذلك

العمل العسكرى ولا سيما إذا أدركنا أن القبائل العربية على تخوم اليمن وفى الطريق إلى مكة ما كانت تملك من القوة ما يمكنها من الوقوف فى وجه الزحف الحبشى.

ومهما كان الأمر فإن إبرهة أقسم ليسير إلى البيت حتى يهدمه - يقصد بيت الله الحرام بمكة- فأعد جيشه وتجهز وسار وفى مقدمته الفيلة التى يقدر عددها بثلاثة عشر فيلا، وسمعت بذلك القبائل العربية فدب الفزع فى نفوسهم ولكنهم رأوا أن جهاد إبرهة حقا عليهم حتى يمنعوه من تحقيق ما يرمى إليه من هدم الكعبة، وتصدى لجيش أبرهة الزاحف إلى مكة بعض القبائل العربية ولكن ما كان لهذه القبائل أن تصمد أمام قوة جيش إبرهة وتنظيمه، وعندما وصل جيش أبرهة إلى الطائف فى طريقه إلى مكة رأت قبائل ثقيف أن لا مناص من المهادنة، وأعلنت خضوعها واستعدادها لبعث من يد له على الطريق إلى مكة.

وعندما وصل أبرهة إلى مشارف مكة أرسل أحد قواده على رأس قوة من رجاله تمكنوا من دخول مكة واستولوا على أموال وإبل بعض رجالها من بينهم مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم كبير قريش وعادوا إلى مكان تجمع الجيش الرئيسى دون ان يتعرض لهم أحد من أهل مكة. ويبدو أن أبرهة كان يرمى إلى إختبار مدى قوة دفاع المدينة ورد الفعل لدى أهل مكة لمقدمه وعزمه اقتحام مدينتهم وهدم بيتها المقدس، ولما أيقن أبرهة أن مكة لن تقاوم مقاومة جادة رأى أن يعلن عن أهدافه ليقتصر الطريق.

أرسل إبرهة حُباطة الحُميرى رسولا إلى مكة لمقابلة عبد المطلب وأبلغه قول أبرهة: أنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تتعرضوا لنا بحرب فلا حاجة لى بدمائكم فقال له عبد المطلب: والله ما نريد

حربه ومالنا به من طاقة، هذا بيت الله الحرام فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، وخرج عبد المطلب وبصحبته وفد من شيوخ مكة للقاء أبرهة.

ويروى المؤرخون أن أبرهة أحسن استقبال سيد قريش وأجلسه بجانبه وسأله عن حاجته، فطلب منه عبد المطلب أن يرد عليه المائتى بعير التى استولى عليها جيشه ويقال أن أبرهة تعجب وقال: أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تتكلم فيه؟ فقال له عبد المطلب: إنى أنا رب الإبل وأن للبيت ربا سيمنعه، قال: ما كان ليمتنع منى، قال: أنت وذاك.

فرد أبرهة على عبد المطلب إبله وهو عازم على مهاجمة مكة لهدم الكعبة، وانصرف عبد المطلب راجعا إلى مكة وأخبر أهلها بما كان من إبرهة، وحرضهم على الخروج من مكة والاحتماء فى شعاب الجبال وقممها تخوفا من جيش إبرهة وأغلق أبواب الكعبة وتوجه ومن معه للاحتماء بجبال مكة وهم يناشدون الله ويستنصرونه على عدوهم.

وعزم إبرهة على تنفيذ وعيده وتوجه بقواته صوب مكة ولكن الله كتب لمكة البقاء ومُنِى أبرهة بهزيمة من السماء، وكانت تلك الهزيمة من المعجزات التى كرم الله بها مكة والبيت الحرام واستجابة إلى توسلات عبد المطلب إلى الله بمنع الخطر عن مكة، وقد وردت أخبار تلك الحادثة فى قوله سبحانه: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ .. " إلى آخر السورة، ولما ذاع خبر هزيمة أبرهة وجيشه على أبواب مكة، زاد احترام القبائل لقريش، وأصبحت تلك الحادثة من أيام العرب المشهورة التى يؤرخون بها أيامهم وعرفت بعام الفيل.

٢- تجارة مكة :

وبالاضافة إلى ما تمتعت به مكة من مكانة سياسية ودينية مرموقة بين القبائل العربية قبل الاسلام، فقد زاد من أهميتها ما تميزت به من النشاط التجارى فقد أصبحت مكة فى القرن السادس الميلادى أهم مراكز التجارة بين الشرق والغرب وتقوم بدور الوسيط التجارى النشط بين اليمن والشام والحبشة ونقلت السلع المختلفة إلى سائر الأقطار شرقاً وغربا، فقد أتاحت الظروف الدولية لمكة أن تستفيد من الصراع القائم بين الفرس والروم، بالاضافة إلى ما كانت تحظى به بين القبائل فى شبه الجزيرة العربية من احترام وتقدير جعلت قوافلها التجارية تتحرك بحرية دون أى خوف من اعتداء أو قرصنة مما جعل الأطراف المختلفة يثقون فى قيام قريش بنقل متاجرهم.

وأصبح الطريق التجارى بين الشمال والجنوب المار بالحجاز هو أكثر الطرق التجارية نشاطا وأمنا لبعد الحجاز عن مناطق النفوذ الأجنبى واحتفاظه باستقلاله وحياده بين القوى المتصارعة، لذلك تمتع القرشيون بظروف اقتصادية حسنة، وكونوا ثروات كبيرة من التجارة وظهر بينهم بعض الأغنياء من أمثال أبى سفيان والوليد بن المغيرة وغيرهما.

ويبدو أن بنى عبد مناف أجداد الرسول (ﷺ) كان لهم السيطرة على حركة التجارة المكية فى تلك الفترة. فيروى بعض المفسرين فى تفسير سورة قريش أن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة أخوة وهم بنو عبد مناف: أحدهم هاشم وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلا فأمن به فى تجارته إلى الشام والثانى عبد شمس وكان يرحل إلى الحبشة والثالث المطلب وكان يرحل إلى اليمن والرابع نوفل وكان يرحل إلى فارس، وكان هؤلاء يسمون

المتجرين، فتتحرك تجارة قريش فى قوافل هؤلاء الأخوة فلا يتعرض لهم أحد ويعلق ابن عباس على هذا بقوله: "أنهم كانوا فى رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله تعالى، وولاة بيته العزيز، فلا يتعرض لهم أحد، والناس غيرهم بي مختطف ومنهوب".

وقد أكسبت التجارة القريشيين حنكة سياسية واقتصادية، فكان نشاطهم التجارى يحتم عليهم معرفة طبيعة العلاقات بين القوى السياسية المحيطة بهم وعدم الدخول فى صراعات أو أحقاد مع أحد الأطراف وتذليل ما قد يعترض طريقهم فى التجارة من صعاب، كما مكنهم عملهم فى مجال التجارة ورحلاتهم الى اليمن والشام ومصر والحبشة وغيرها من الأقطار، واختلاطهم بشعوب تلك الأقطار من ذوى الحضارات العريقة، أن يطلعوا على حضارات هذه الشعوب والتعرف على أحوالها السياسة والاقتصادية والإجتماعية، مما كان له كبير الأثر فى الارتقاء بأفكارهم وتقبلهم للمبادئ السامية.

٣- الحالة الدينية :

كان عرب شبه الجزيرة العربية فى معظمهم يدينون فى الجاهلية الأولى -بدين ابراهيم عليه السلام-، يعبدون الله ويصلون ويحجون إلى الكعبة التى أقامها إسماعيل فى مكة. وجعلها مطافا لأولاده ومركزاً لعبادة الله الواحد، ومع الوقت تزايد نسل ابراهيم وضاقت بهم مكة وارتحلوا فى أنحاء شبه الجزيرة العربية سعياً وراء الرزق، وكانت كل جماعة ترتحل من مكة تأخذ معها حجرا من حجارة الكعبة ليكون أثرا منها يطوفون به كطوافهم بالكعبة، وبعد مرور فترة من الزمن نست الأجيال المتعاقبة حقيقة هذه الحجارة وظنوا أنها مصدر عبادتهم وتقديسهم وإن كانوا فى نفس الوقت

يعتقدون انها تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، فقد جاء فى القرآن الكريم على لسانهم "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى " (الزمر/٣).

ويروى المؤرخون أن عمرو بن لحى الخزاعى الأزدى هو أول من نصب الأصنام فى الكعبة، ودعا العرب لتعظيمها ثم انتشرت بعدد ذلك حتى أصبح معظم العرب فى العصر الجاهلى يدينون بالوثنية، وكان لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها أهمها وأعظمها شأنا "هبل" بالاضافة إلى العديد من الأصنام التى عبدتها القبائل المختلفة المنتشرة فى أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتذكر الروايات التاريخية أنه كان يوجد حول الكعبة قبل ظهور الإسلام ثلثمائة وستون صنما، وقد حرصت قريش على وجود تلك الأصنام لتجذب القبائل إلى زيارتها فى موسم الحج.

ورغم انتشار الوثنية كان بعض الناس ما زال فيهم بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها: من تعظيم البيت والطواف به والحج والعُمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة، وهدى البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه. فكانت كِنانة وقريش إذا أهلوا قالوا: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك" فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده.

ويروى ابن اسحاق أن أهل كل دار اتخذوا فى دارهم صنما يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب فكان ذلك آخر ما يفعل حين يتجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله، فلما بعث الله رسوله محمد (ﷺ) بالتوحيد، قالت قريش "اجعل الآلهة الها واحدا، إن هذا لشيء عجاب".

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحُجّاب، وتُهدى لها كما تُهدى للكعبة، وتطوّف بها وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة لأنها بيت ابراهيم. من هذه الطواغيت "العُزة" كانت لقريش وبنى كنانة بنخلة. وكانت اللاّت لثقيف بالطائف وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب.

وبالإضافة إلى الوثنية فإن بعض العرب كانوا يعبدون النجوم والكواكب وهؤلاء يُعرفون بالصائبة، وقد انتشرت تلك الديانة فى بلاد اليمن وبعض أقاليم العراق، كما انتشرت الزرادشتية والمجوسية فى البحرين وانتقلت إليها من فارس، وهى ديانة تؤمن بالثنائية الممثلة فى الخير والشر ويرمز للخير بالنور والشر بالظلام، لذلك كانت النار من أهم رموز عبادتهم لأنها تعد مصدر الضوء أى مصدر الخير.

وقد عرفت الجزيرة العربية الديانة اليهودية قبل ظهور الاسلام وانتشرت فى بعض أقاليم اليمن وفى وادى القرى وخيبر ويثرب حيث اعتنقها قبائل بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع وقد انتشر عن طريق هؤلاء اليهود تعاليم التوراة من بعث وثواب، وكان لذلك أثره على عقول العرب مما مهد الطريق أمام أهل يثرب لتقبل تعاليم الاسلام.

كذلك انتشرت المسيحية فى شمال الجزيرة العربية لقربها من أملاك الدولة الرومانية المسيحية، فعرفت بين قبائل تغلب وغسان وقضاعة، كما دخلت المسيحية اليمن عن طريق الحبشة وكانت مدينة نجران من أهم مراكز النصرانية فى اليمن.

ثانياً : أحوال عمان قبيل الإسلام

١- الموقع الجغرافي :-

قسّم المقدسى فى كتابه "أحسن التقاسيم" الجزيرة العربية إلى أربعة أقاليم واسعة هى "الحجاز، واليمن، وعُمان، وهجر"[١] فكانت عُمان تمثل أحد الأقاليم الرئيسية فى شبه الجزيرة العربية؛ ولما كانت العوامل الجغرافية لأى إقليم تلعب دورًا مؤثرًا فى تاريخه وحضارته فإننا فى البداية نشير إلى موقع عُمان.

فكانت عُمان -وما زالت- تتمتع بموقع جغرافى متميز عبر عصور التاريخ على مدخل الخليج فكانت همزة الوصل بين المحيط الهندى وعالم جنوب آسيا وشرقها من ناحية، وعالم البحر المتوسط وبلاد شمال إفريقية وجنوب أوربا من ناحية أخرى، ونتيجة للاختلاف فى البيئة والمناخ والانتاج بأنواعه بين الشرق والغرب فقد كان التبادل التجارى أمرًا ضمنيا. وقد نهضت عُمان بحكم موقعها بدور كبير -كما سنوضح- فى النشاط الاقتصادى وحركة نقل السلع .

ويفهم من كتابات المؤرخين والجغرافيين أن عُمان من الدول القليلة فى شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج التى تكاد تتشابه إلى حد بعيد من حيث المساحة والحدود قديماً وحديثاً، بل إنها كانت أكثر اتساعا مما هى عليه الآن .

فكان يحدها من الشمال سواحل البحرين ومن الشمال الغربى بلاد اليمامة[٢] أما الجنوب فيطل على بحر عُرف باسمها "بحر عُمان". إذ يذكر

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٩٣ .

(٢) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق على عبد الواحد، القاهرة ، ١٩٧٩، ج١، ص ٣٤٥، الحميرى ، الروض المعطار ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٣١٩ .

صاحب الروض المعطار هذا النص "كانت مياه المحيط المقابلة لعمان يطلق عليها البحر العمانى، كما يطلق على البحار المواجهة للهند بحر الهند"[١]. أما جنوبها الغربى فيتصل بحضرموت[٢]، وكان أقليم "الشحر" من توابع عُمان وجزءًا من أملاكها .

وفى هذا الشأن يروى القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى عند حديثه عن بلاد البحرين: "وسميت هجر بالبحرين .. وقاعدتها عُمان وهى على البحر تحت البصرة وليس على بحر فارس مدينة أجل منها، وهى ديار الأزد .. وهى بلدة كثيرة النخيل والفواكه، وكانت القصبة فى القدم مدينة صحار[٣].

وقد تنوعت الأقاليم الجغرافية فى عُمان بين سهول ساحلية سكنها المزارعون وجبال كان يسكنها أهل عُمان منذ القدم، بالإضافة إلى صحارى واسعة، كما تمتعت بموقع بحرى مهم أدى إلى تفوقها البحرى عبر العصور، وكان هذا التفوق نتيجة حتمية لصعوبة الاتصال البرى بينها وبين جيرانها، فكان على العمانيين أن يلجأوا إلى الطريق البحرى فبرعوا فى استغلاله والاستفادة منه بالمهارة فى فن الملاحة وصناعة السفن بأنواعها، ولذلك كان لموقع عُمان أهمية تنعكس على سير الأحداث التاريخية والتطورات الحضارية، وبالتالى يؤثر على دور عُمان السياسى والحضارى الاقتصادى.

---

(١) الحميرى ، المصدر السابق ، ص ٣٢٨ .

(٢) أنظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص ١٥١ .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى، ح ٥ ، ص ٥٥ .

٢ - النشاط التجارى والبحرى

أما عن النشاط التجارى والبحرى التى برعت فيه عُمان قبل الإسلام، فتحدثنا بعض الروايات التى أوردتها المصادر التى يفهم منها أن عُمان كانت ترتبط بمكة وسوق عكاظ على وجه التحديد بروابط تجارية وأدبية، فيروى القلقشندى فى كتابه "صبح الأعشى" عن أسواق العرب المشهورة قبل الإسلام، فيذكر أن العرب كانت لهم أسواق يقيمونها كل شهر على مدار شهور السنة، وعندما يفرغون من نشاطهم التجارى فى بلد ينتقلون إلى البلد الأخرى طبقا لنظام معروف لدى القبائل العربية لا يتغير، وكان التجار حريصين على الاجتماع فى المكان والزمان المحددين سلفا والمعروفان للجميع .

فيروى القلقشندى تحت عنوان "أسواق العرب المعروفة فيما قبل الإسلام" فيقول: "كان للعرب أسواق يقيمونها فى شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر قبائل العرب، ممن قَرُب منهم وبعُد فكانوا ينزلون دومة الجندل أول يوم من ربيع الأول، فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر، ثم ينتقلون إلى سوق هجر من البحرين فى شهر ربيع الآخر فتكون أسواقهم بها .. ثم يرتحلون نحو عُمان فتقوم سوقهم بها، ثم يرتحلون إلى اليمن .. ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء ..، ثم يرتحلون إلى عكاظ فى الأشهر الحُرم فتقوم أسواقهم، ويتناشدون الأشعار ويتحاجون ثم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج ثم يرجعون إلى أوطانهم قد حصلوا على الغنيمة، وآلوا بالسلامة "[١].

---

(١) انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، ج ١ ، ص ٤١٠- ٤١١ .

والواقع أن عُمان بحكم موقعها الجغرافى على مدخل الخليج فقد قامت بدور مؤثر ومُهم فى حركة النشاط التجارى البرى والبحرى بين الشرق والغرب، ويجب الإشارة إلى أن دور عُمان فى هذا النشاط التجارى والبحرى لم يقف عند وجود محطات كبرى على شواطئه كمراسى للسفن ومراكز لتبادل تلك التجارة الواسعة، ولكن أهل عُمان أسهموا أيضاً فى الحركة التجارية بسفنهم المختلفة التى برعوا فى صناعتها لتناسب الطبيعة فى المنطقة، كما برعوا فى قيادة هذه السفن فى كل الظروف المناخية والوصول بها إلى بر الأمان .

وقام العمانيون بالمشاركة فى نقل البضائع على اختلاف أنواعها من بلدان آسيا إلى موانىء الخليج، لتُحمل من هناك إلى شط العرب ثم نهرى دجلة والفرات .

وكانت البضائع بَعد ذلك تأخذ مسارها بالطريق البرى إلى مناطق فى شرق البحر المتوسط، ورواية القلقشندى توضح أن عُمان كانت ملتقى الطرق التجارية البحرية والبرية من المشرق إلى مصر، من مكة إلى جدة على ساحل البحر الأحمر ومنها إلى باب المندب ثم إلى عدن ثم العودة إلى عُمان.

وهكذا تعود حركة التجارة فى دوران مستمر بعد تمام عملية التبادل للبضائع فتتجه التجارات إلى المشرق ثانية(١) .

أما أنواع السلع التى كانت تأتى من بلاد المشرق الأقصى فكان أهمها المسك والعود والكافور والدار صينى وغيرها ويسلكون بها من عُمان عبر الطريق البحرى إلى البحر الأحمر والقلزم ومصر ومنها إلى أوربا.

---

(١) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٧ .

وفى رحلة العودة كان التجار يحملون سفنهم بأنواع مختلفة من البضائع أهمها؛ العبيد من الجوارى والغلمان بالإضافة إلى أنواع من الحرير والجلود والسيوف [١].

وقد عُرف منذ العصور القديمة تجارة بعض السلع الثمينة التى كان مركز تبادلها فى عُمان، فيروى القلقشندى ما يفيد رواج تجارة المسك والعنبر التى كان يحملها التجار من الهند مركز الإنتاج عبر الطريق البحرى إلى سواحل عُمان حيث يتم البيع والمبادلة لأصحاب السفن والتجار فى موانىء عُمان[٢] ولا يفوتنا أن ننوه فى هذا الصدد أن عمان كانت من أهم شواطىء الخليج التى كان يرتادها الغواصون لصيد اللؤلؤ من مياهها[٣] وكان لأهل عُمان باع طويل فى هذا المجال مما در عليهم ثروات طائلة .

٣- الأوضاع السياسية :

لا شك أن النشاط التجارى والبحرى الواسع التى تمتعت به عمان على مر العصور جعلها على صلة بالشعوب المختلفة والحضارات المتنوعة لهذه الشعوب التى تتعامل معها، فكما كان يتم تبادل السلع والتجارة، كان يتم أيضاً بطريق مباشر أو غير مباشر تبادل الجوانب الحضارية والتأثر بمظاهر المتغيرات الدينية والاقتصادية والاجتماعية، فالقوافل البرية والبحرية لا تنقل البضائع من مكان لآخر فقط ، وإنما تنقل معها عادات وتقاليد وأفكار الشعوب التى يتم التعامل معها، فموقع عُمان ساعدها على أن تكون ملتقى التيارات الحضارية القادمة من الشرق والغرب كما كانت عُمان لكل هذا مطمعاً لجيرانها من الفرس .

---

(١) انظر : ابن خردازبه ، المسالك والممالك ، ص ١٥٥ .

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٢١، ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٠٨ .

فكان الفرس يتطلعون إلى السيطرة على الشاطيء الغربي للخليج حيث سواحل عُمان، وكان هدفهم هو التحكم في حركة التجارة النشطة التي كانت تتمتع بها المراكز التجارية على سواحل عُمان، وتم لهم ذلك ولم يجد الفرس في بعض الفترات القوة التي يمكنها التصدي لأطماعهم ومنعهم من احتلال الشواطئ العمانية .

ولكن الأوضاع في عُمان تتغير عندما يهاجر إليها من اليمن قبائل قوية الشكيمة من الأزد بقيادة زعيمهم المشهور "مالك بن فهم" الذى اضطر إلى ترك موطنه الأصلى مع قبيلته لظروف انهيار سد مأرب حوالى سنة ٥٣٥م على أيام حكم أبرهة الأشرم الحبشي[١] .

وقد تصدى الفرس لهذه الأعداد الكبيرة من الأزد التى اقتحمت عليهم أرض عُمان، وتروى المصادر بالتفصيل محاولات الفرس القضاء على هذا الخطر القادم من اليمن، ودارت بين الجانبين معارك متعددة، استخدم فيها الفرس سلاحهم الرهيب وهو الفيلة، إلا أن مالك بن فهم ورجاله كانوا من الشجاعة والقوة بحيث لم ترهبهم الفيلة التى عرفوها عن طريق إبرهة الأشرم فى اليمن .

وتمكن مالك بن فهم من هزيمة الفرس وطردهم من سواحل عُمان، وتمت عقد معاهدة بين الجانبين إلا أن الفرس ظلوا يتربصون بعُمان ويرغبون فى عودة سيطرتهم على سواحلها[٢] .

---

(١) انظر التفاصيل: نور الدين السالمى (ت ١٣٣٢ هـ/١٩١٣م) تحفة الأعيان، ص ١٣ وما بعدها .

(٢) انظر: السالمى، المرجع السابق، ص ١٥ – ١٨ .

وقد تعاقبت فى حكم عُمان بعد مالك بن فهم أبناؤه وذريته، وتلقب حكام عُمان باسم الجلندى وقبيل ظهور الإسلام بفترة صار ملك عُمان إلى "الجلندى بن المستكبر المعولى" ويبدو من روايات المصادر أن الحكومة المركزية فى عُمان لم تكن من القوة بحيث يمكنها الاحتفاظ بسواحل عُمان أمام قوة الفرس العسكرية، لذلك اضطر حكام عمان إلى عقد الصلح مع العناصر الفارسية من ملوك آل ساسان وآل الجلندى وبمقتضى هذا الصلح وافق حكام عُمان على أن يحتفظ الفرس بسيطرتهم على السواحل العمانية وشطوط البحر ويكون الأزد ملوكاً بالبادية والجبال وأطراف عُمان[١] .

وظل الحال فى عُمان طبقا لهذه الاتفاقية حتى دخول عُمان فى الاسلام فى عصر الرسول ﷺ ورغم هذا فإن الجغرافيين المسلمين كانوا يشيرون فى كتاباتهم إلى استقلال عُمان عند تعريفهم بها فهى "مستقلة بذاتها عامرة بخيراتها" وهى اقليم "سلطانى مستقل"[٢].

فكانت عُمان قبل الاسلام من الأقاليم القليلة فى شبه الجزيرة العربية التى عرفت نظام الحكم الوراثى، فكانت قبيل الإسلام يسكنها آل الجلندى، ويفهم هذا المعنى مما ذكره ابن حزم فى قوله "كانت العرب ملوكا فى بلادهم يتوارثون الملك كابراً عن كابر كملوك اليمن وجيفر وعباد ابنى الجلندى ملكى عُمان"[٣] .

---

(١) نفسه، ص ١٨ .

(٢) الاصطخرى، مسالك الممالك، ليدن ١٩١٧، ص ٢٥ – ٢٦ ، الحميرى، المصدر السابق ، ص ٤١٣ .

(٣) انظر: ابن حزم ، الفصل فى الملل والأهواء والنِحل ، جدة ١٩٨٢ م ج٢ ، ص ٢٢٤ .

وكانت مدينة "صحار" عاصمة عُمان فى ذلك الوقت ميناءاً مشهوراً على ساحل الخليج ويعدها المؤرخون والجغرافيون من أهم الموانئ ومن أسواق العرب المشهورة قبل الإسلام وكان سوقها السنوى يعقد فى شهر رجب من كل عام، ولا يحتاج فيها إلى خفارة لأنها أرض مملكة: وكان آل الجلندى ملوك عُمان يوفرون الأمان والحماية للتجار فى مقابل حصولهم على العُشْر من تجارتهم [١] .

٤- الحالة الدينية :

أما الحالة الدينية فى عُمان قبيل الإسلام فقد سبق أن أشرناأن معظم العرب فى شبه الجزيرة العربية بما فيها عُمان كانوا قد اتخذوا من الأوثان آلهة لهم، بعد أن طال بهم العهد على اعتناق الحنفية دين جدهم إبراهيم عليه السلام، وكما روت لنا المصادر العمانية وغيرها أن أول من أسلم من أهل عُمان – رجل يدعى "مازن ابن غضوبة" من سكان مدينة عمانية تسمى سمائل[٢]، وكان مازن هذا من مشاهير بلدته ومن علمائها وكهانها المعدودين، وكان يقوم على خدمة صنم معروف فى بلدته يسمى "ناجر" تعظمه قبائل بنى خطامة وبن ناجية من طيء، وكان يقدم له القرابين ويذبح له الذبائح[٣] .

ومن المرجح أن مثل هذا كان يحدث فى مناطق أخرى من عُمان، وبحكم العلاقات التى كان تربط أهل عمان بعدد من العناصر والأجناس

---

(١) انظر : تاريخ اليعقوبى ، ح ٢ ، ص ٢٧٠ ، المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص ٢٦٠ .

(٢) انظر : أبو بكر الهمدانى، عجالة المبتدى، ص ٥٥ ، الحميرى، الروض المعطار ص٣٢٦ .

(٣) الحميرى، المصدر السابق، ص٣٢٦ – ٣٢٧، السالمى، تحفة الأعيان ص٣٦ – ٣٧.

المختلفة مثل الفرس الذين كانوا يمثلون جزءاً من سكان عُمان لفترات طويلة قبل الإسلام، فإن الديانات التى كـان يعتنقهـا الفـرس مثـل الماجوسـية والزرادشتية وغيرها قد انتقلت إلى بعض العرب فى عُمان، بالاضافة إلـى ذلك فإن الأزد اليمنين فى هجرتهم إلى عُمان بقيادة مالك بن فهـم والقبائـل الأخرى التى لحقت بهم من اليمنيين كانواعلى صلة بالديانات المنتشرة باليمن مثل اليهودية والمسيحية .

وبهذا يمكن القول أن أهل عُمان قبيل الأسلام قد عرفـوا الـديانات المختلفة التى كانت منتشرة فى شبه الجزيرة العربية فى ذلك الوقت .

الفصل الثاني

الدور المكي في حياة محمد ﷺ

١ـ مولد محمد ﷺ ونشأته .

٢ـ نزول الوحي وبدء الدعوة إلى الإسلام.

٣ـ معارضة مشركي قريش للرسول.

٤ـ هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة.

٥ـ مقاطعة المسلمين وأنصارهم.

٦ـ محاولة قريش لعقد مصالحة.

٧ـ الهجرة إلى يثرب (المدينة).

- بيعة العقبة الأولى .
- بيعة العقبة الثانية.

الفصل الثاني
الدور المكى فى حياة محمد (ﷺ)

١- مولد محمد (ﷺ) ونشأته :

ولد النبى (ﷺ) فى ابريل سنة ٥٧١م وهى السنة المعروفة عند العرب بعام الفيل من والدين كريمين انحدروا من أصلاب طاهرة كريمة. فأبوه هو عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة، ويتسلسل نسبه الكريم إلى معد بن عدنان من نسل سيدنا اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام.

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة أفضل نساء قريش نسبا وموضعا.

ومات عبدالله بن عبد المطلب قبل ولادة محمد (ﷺ)، ويذكر المؤرخون أن عبد المطلب جد الرسول كفله بعد ولادته وتلقى نبأ مولده بالفرح والانشراح وأخذه إلى الكعبة حيث حمد الله على ما منحه من نعمة بمولده، وختنه فى اليوم السابع وصنع لتلك المناسبة وليمة حافلة دعا اليها عظماء قريش وشيوخها وسماه محمدا (ﷺ).

وكما جرت عادة أشراف قريش، التمس لمحمد (ﷺ) المراضع ووقع الاختيارعلى امرأة بدوية تدعى حليمة ابنه أبى ذؤيب، وبعد بلوغه عامه الثانى أعادته حليمة إلى أمه، ولكنها كانت تحرص على بقائه معها لما توسمت فى وجوده من مظاهر الخير والبركة، فتوسلت إلى أمه أن يظل معها فى البادية، فقبلت آمنة وظل محمدا (ﷺ) فى حضانة حليمة إلى أن بلغ الخامسة من عمره فعاد إلى كنف أمه، ولكن ما لبثت آمنة أن توفت وهو فى

السادسة من عمره وهى راجعه معه إلى مكة من زيارة لأخواله من بنى عدى بن النجار فى مكان يعرف بالأبواء بين مكة والمدينة.

فتولى أمور محمد (ﷺ) جده عبد المطلب واعتنى بتربيته وكان يؤثره على أولاده شديد الكلف به ويقال أن عبد المطلب كان له مجلسا فى ظل الكعبة على فراش لا يجلس عليه أحد غيره وكان أولاده يجلسون حول الفراش، وكان الرسول وهو مازال غلاما يأتى ليجلس على الفراش فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فينهاهم عبد المطلب عن ذلك ويجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده قائلاً لمن حوله" "دعوا ابنى، فوالله إن له لشأناً".

وتوفى عبد المطلب فى العام الثامن بعد الفيل والنبى (ﷺ) فى الثامنة من عمره فكفله عمه أبو طالب الذى أوصى عبدالمطلب له بذلك وهو على فراش الموت، وقد حظى محمدا (ﷺ) برعاية وحنان أبوطالب وزوجه فاطمة بنت أسد بن هاشم التى كانت تحسن معاملته وكان يكن لها حبا شديداً وقد آلمه وفاتها وحزن عليها حزناً شديداً.

وقد مارس محمد (ﷺ) بعض الأعمال الشائعة فى مجتمعه فى فترة طفولته فكان يخرج مع أقرانه فى صباه للمراعى بصحبة الأغنام، كما شارك عمه أبا طالب فى بعض رحلاته إلى الشام وقد أكسبته تلك الرحلات دراية ومعرفة بأحوال الشام وتطلع عن كثب على مظاهر الحياة فى المجتمع الرومانى، كما أصبحت له دراية بطرق التعامل التجارى وأساليبه وأطلع على أخلاق الناس وصفاتهم فازداد حنكة وتمرساً مع الوقت.

وكان من نتيجة اشتغال محمد (ﷺ) بالتجارة وما عرف عنه من الأمانة والصدق والحلم والوفاء بالعهد وما اتصف به من كريم الأخلاق أن اتصلت الأسباب بينه وبين السيدة خديجة بنت خويلد وهى امرأة شريفة ذات

ثراء وكانت تستأجر الرجال ليتاجروا لها لقاء أجر تدفعه لهم ، فلما بلغها ما اتصف به محمد (ﷺ) عرضت عليه الخروج فى تجارة لها إلى الشام مع غلامها ميسرة، فقبل محمد (ﷺ) ذلك، وأثناء تلك الرحلة رأى ميسرة أموراً أدهشته وسمع كلاما من رهبان النصارى عن محمد (ﷺ) أثارت اعجابه وعاد محمد (ﷺ) إلى مكة وقد أصاب ربحا وفيرا لم تعهده خديجة من قبل، وقص عليها غلامها ما شاهده من أمر محمد (ﷺ) وما سمعه عنه، وكانت خديجة امرأة حازمة حاذقة شريفة فبعثت إلى الرسول وقالت له: "يا بن العم، إنى رغبت فيك لقرابتك وشرفك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك" وعرضت عليه نفسها للزواج.

وكانت خديجة لمكانتها ونسبها الشريف مطمح رجال قريش يتمنون ذلك منها، وأخبر محمد (ﷺ) أعمامه بما كان من أمر خديجة، فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه ، وأنتهى الأمر بأن تزوج محمد (ﷺ) من خديجة وكان محمد (ﷺ) ثالث أزواجها ولم يتزوج قبلها ولا عليها حتى ماتت بعد أن أقامت معه أربعاً وعشرين عاماً، وكانت تسمى فى الجاهلية والاسلام "الطاهرة" وقد أنجب منها ستة أولاد منهم فاطمة التى تزوجت عليا بن أبى طالب فيما بعد.

وقد هيأ زواج محمد (ﷺ) من السيدة خديجة الشريفة الحاذقة الثرية حياة مستقرة جعلته يتخفف من أعباء الحياة، وعاش محمد (ﷺ) بين قومه حياة طيبة رغدة لما اتسم به من رفيع الخصال وعظيم الأخلاق، وكان ينزه نفسه عن عبادة الأوثان ولا يحضر مواسم للحج ولا يقبل على ما اعتاد عليه أقرانه من الشراب واللهو والسمر، ولا ينغمس فيما انغمس فيه قومه من مظاهر الجاهلية وكان يتفرغ بعض الوقت لعزلته الذاتية وأفكاره التى يخلو

بها إلى نفسه بعيداً عن الناس، فيخرج إلى جبل يقع شمالى مكة يعرف بغار حراء ويقيم فيه بعض الوقت وحيداً يفكر ويتأمل فى أمور الكون والبعث والحساب والجنة والنار، حتى إذا فرغ ما معه من زاد ذهب إلى الكعبة للطواف ثم عاد إلى بيته، وكان يعاود التردد إلى غار حراء ويقضى به طوال شهر رمضان فى العبادة والتأمل.

٢- نزول الوحى على محمد (ﷺ) وبدء الدعوة إلى الإسلام :

نزل الوحى على محمد (ﷺ) وهو فى حوالى الأربعين من عمره حيث كان يتعبد كعادته فى غار حراء فى شهر رمضان فجاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى.

وروى ابن هشام نقلا عن ابن اسحاق فى السيرة ما ذكره الرسول الكريم (ﷺ) عن تفاصيل هذا الحدث المهم بنفسه فيقول:

"فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ قال: فغتنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قلت ما أقرأ. فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى، فقال اقرأ. قلت ماذا أقرأ؟ فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قلت ماذا أقرأ؟ فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم ارسلنى فقال: اقرأ. فقلت: ماذا ؟ فقال: "اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم".

قال: فقرأتها، ثم انتهى فانصرف عنى، وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتاباً . وكانت تلك الآيات الكريمة أول ما نزل من القرآن الكريم.

ويروى مؤرخى السيرة أن الرسول (ﷺ) عاد إلى داره وقص على خديجة ماكان من أمر جبريل، فهدأت من روعه وقالت: أبشر ياابن عم وأثبت، فوالذى نفس خديجة بيده أنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها وانطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فأخبرته بما كان من أمر محمد (ﷺ) فقال لها ورقة: لئن كنت صدقتنى القول يا خديجة لقد جاء محمدا (ﷺ) الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وأنه لنبي هذه الأمة، فقولى له فليثبت وتمنى ورقة أن يمتد به العمر حتى يقف بجانب النبى (ﷺ) ويناصره، فعادت خديجة إلى النبي (ﷺ) وأخبرته بقول ورقة.

بعد نزول الوحي على محمد (ﷺ) فى غار حراء بآيات القرآن الأولى، فتر الوحى عنه فترة من الزمن، فأحزنه ذلك حزنا شديدا حتى كاد يضيق بنفسه، وكان يهيم على وجهه قاصدا شواهق الجبال كى يتردى، فكلما أوفى بذروة جبل ظهر له جبريل وصاح به قائلا: يا محمد، إنك رسول الله حقا، فتطمئن نفس النبي (ﷺ) ثم يفتر عنه الوحى، ويتكرر ما حدث بين النبي (ﷺ) وجبريل. وتروى السيدة عائشة أنه بينما كان الرسول ماشيا سمع صوتا من قبل السماء قال: فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض، فجثيت فرقا منه، فجئت أهلى فقلت: زملونى، زملونى، فأنزل الله عز وجل: "يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر". (سورة المدثر مكية ، (٧٤) الآيات ١-٦).

وكانت تلك الآيات الكريمة بمثابة الإعلان الحقيقى لبدء الدعوة الإسلامية وكان الأمر فيها صريحا إلى النبي (ﷺ) أن يحزم أمره ويدعو قومه إلى عبادة الله الواحد القهار. ونبذ عبادة الأوثان، وبدأ الرسول دعوته

إلى الاسلام وتنفيذ أوامر الله سبحانه وتعالى، بأقرب المقربين إليه من أفـراد أسرته فاستجابت له زوجته خديجة، وابن عمه على بن أبى طالـب وكـان صبيا فى العاشرة من عمره، وزيد بن حارثة الكلبى وكان عبـدا للرسـول فأعتقه وتبناه، كما شمل الإسلام بنوره أفرادا من خارج أسرة الرسول (ﷺ) فأسلم أبو بكر بن أبى قحافة التيمى الذى كان من أخلص أصدقاء النبي (ﷺ) كما كانت له مكانة مرموقة فى قريش لذاته وأخلاقه الحميـدة التـى جعلتـه محببا بين قومه، واستطاع أبو بكر بما له من نفوذ وعلم أن يدعو المحيطين به إلى الاسلام، وقد هدى الله به إلى الاسلام بعض رجالات قـريش مـنهم عثمان بن عفان، والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله، جاء بهم أبو بكر إلى النبى (ﷺ) فأعلنوا اسلامهم أمامه.

ثم تلى ذلك اسلام جماعة أخرى من زعماء قريش منهم أبى عبيدة بن الجراح وأبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم والأخير كان النبى (ﷺ) يتخذ من داره مركزا للدعوة إلى الاسلام سرا وكانت دار الأرقم تقع على جبل الصفا ويؤمها الحجيج والزائرين الغرباء، فكان الرسول (ﷺ) يجتمع فيها بالمؤمنين برسالته مستخفيا، ويقرأ عليهم ما ينـزل عليـه مـن القرآن، كما انضمت إلى الاسلام خلال فترة الدعوة السرية أعداد كثيرة مـن الموالى والفقراء والعبيد تجذبهم تعاليم الاسلام السمحة، وما تدعو إليه مـن الآخاء والمساواة، وقد أطلقت على تلك الفترة من الـدعوة النبويـة "دعـوة الأفراد" لأن الرسول كان يدعو خلالها الناس إلى الاسلام فرادى كما سـمى من دخل الدعوة الاسلامية فى تلك الحقبة بالسابقين الأولين.

واستمر الرسول ما يقرب من ثلاث سنوات يدعو إلى الاسلام سرا كل من يثق فيه ويطمئن إلى استعداده لقبول دعوته، ورغم تلك السرية، فـإن

المشركين كانوا يراقبون تحركات النبي (ﷺ) ونشاطه، ويسخرون من أصحابه كلما رأوهم فى صلاتهم وعبادتهم، فنزل أمر الله سبحانه وتعالى إلى الرسول (ﷺ) بالجهر بالدعوة، وعدم المبالاة بسخرية المعارضين فى قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين، أنا كفيناك المستهزئين" (الحجر ٩٤) وقال تعالى: "وانذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون" (الشعراء ٢١٤).

وبدأ الرسول دعوته العلنية بأن نادى على قومه من فوق جبل الصفا بظاهر مكة، فلما اجتمعوا إليه، قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا. فقال: إنى "نذير لكم بين يدى عذاب شديد" (سبأ /٣٦، ٤٦) فقال أبو لهب: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى فيه: "تبت يدا أبى لهب وتب" (المسد ١/١١١).

٣- معارضة مشركى قريش للرسول (ﷺ):

استمر النبي (ﷺ) فى الجهر بالدعوة إلى الاسلام معرضا عن استخفاف قريش به وإعراض معظم أفرادها عن دعوته، وكانت عداوة قريش لا تتعدى الاستهزاء وعدم المبالاة فى بادئ الأمر ولكن عندما بدأ النبي (ﷺ) يسب آلهتهم ويعيبها وينسب إلى من يعتنق عبادتها الكفر والضلال، ودعا إلى نبذ عبادة الأحجار وعبادة الله الواحد القهار، عند ذلك أجمع القريشيون على خلافه وعداوته فقد أيقنوا أن انتصار محمد (ﷺ) فى دعوته سيدمر ويمحو من الوجود ما اعتاده العرب وتوارثوه من عبادة الأوثان، وضياع ما كانوا يتمتعون به من نفوذ على العرب لكونهم سدنة الكعبة وحراسها وفقدهم ما يحصلون عليه من ثروة نتيجة لهذا العمل، لذلك أعلنت قريش عداءها للنبي (ﷺ) وأجمعوا على مقاومته وتعمدوا إيذاء أتباعه ليصدوهم عن دين الاسلام.

ولاقى المسلمون الأوائل ضروباً عنيفة من الايذاء والعذاب على يد قريش أسهبت كتب السيرة فى ذكر تفاصيلها، ولكن تلك الأمور كانت من أسباب تمسك المسلمين بدينهم والصمود فى وجه الاضطهاد وإذكاء روح الجماعة الدينية فيهم، ولم يستطع القريشيون فى أول الأمر أن يتعرضوا للنبي (ﷺ) بأذى وهو فى حماية عمه أبى طالب لما كان يتمتع به عمه من مكانة ونفوذ قوى بين قومه وكان أبو طالب يعطف على الرسول ويقف بجانبه مما ساعد الرسول (ﷺ) على المضى فى دعوته مظهراً لأمر الله لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش موقف أبى طالب من النبي (ﷺ) وعدم نهيه عما هو فيه وحدبه عليه مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب فقالوا: "يا أبا طالب، ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه"، ولكن أبا طالب حاول أن يمتص غضبهم فقال لهم قولا طيبا وردهم ردا حسنا فانصرفوا عنه.

ومضى النبى (ﷺ) على ما هو بسبيله من الدعوة إلى الإسلام وإظهار دين الحق غير عابئ بتهديد قريش ووعيدها، ممعنا فى سب آلهتهم وتحقير شأنها، فاشتد الأمر بينه وبينهم، وزاد حنقهم عليه وحض بعضهم بعضا على التصدى له، ثم توجه وفد منهم إلى أبى طالب للمرة الثانية، ووجهوا إليه عبارات عنيفة تحمل معانى التهديد والانتقام، فقالوا له: "يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وأنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وأنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين".

ونلاحظ الفرق فى حدة الخطاب فى لقاء مشركى قريش بأبى طالب عم الرسول (ﷺ) فى المرة الثانية عن سابقتها، حيث أعلن وفد المشركين

استعدادهم لمنازلة الرسول (ﷺ) ومنازلة أبى طالب نفسه حتى آخر رمق إذا لم يكف محمد (ﷺ) عن التمادى فيما هو مستمر فيــه مــن نــشر الــدعوة الإسلامية بين الناس وكسب الأنصار من أهل مكة على حــساب الأوضـــاع الدينية السائدة قبل الدعوة.

فعظم ذلك على أبى طالب وأدرك عاقبة الأمور، فلما انــصرف عنــه الوفد القريشى بعث إلى رسول الله (ﷺ) وأخبره بما قاله أشراف قريش وما يحمله ذلك من تهديد ووعيد وقال له: "فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق". فتأثر الرسول (ﷺ) من كلام عمه ظن أنه قد تخلى عنه وضعف عن نصرته فقال رسولا الله (ﷺ) لعمه : "يا عم والله لو وضــعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته" وبكى النبى (ﷺ) تأثراً وهم بالانصراف من مجلــس عمه، فناداه أبو طالب قائلاً: "اذهب يا ابن أخى فافعل ما أحببــت فــوالله لا أسلمك لشىء أبداً".

وبذلك أعلن أبو طالب مناصرته للنبى (ﷺ) والوقوف بجانب الــدعوة الإسلامية صراحة متحديا بذلك أشراف قريش، غيــر مكتــرث لتهديــداتهم فأعيت قريش الحيل ولم يتمكنوا من الوقوف فى وجــه الــدعوة الإســلامية بالحجة والاقناع وتحداهم القرآن الكريم ببلاغته المعجزة، ونزلت آياته تباعا تنذر المشركين وتبشر المؤمنين، وتهاجم الأصنام وتسخر من عقــول مــن يعبدها، فأجمع القريشيون أمرهم على التنكيل بمحمد (ﷺ) وأتباعــه الــذين أسلموا معه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنــونهم عن دينهم وحمى الله رسوله (ﷺ) منهم بصحبة أبى طالب، الذى قام فى بنى هاشم وبنى عبد المطلب فدعاهم إلى حماية النبى (ﷺ) والزود عنــه وصــد

أذى المشركين عنه، فاستجابوا له –إلا ماكان من أبى لهب– الذى ملأ قلبـــه الحقد على الرسول ودعوته.

وقد تعرض للأذى من قريش أعداد كبيرة من المسلمين من المـــوالى والمستضعفين والعبيد حتى لقى بعضهم الموت من شـــدة التعـــذيب، وممـــن أصابه العذاب بلال بن أبى رباح –مؤذن الرسول (ﷺ) – الذى نكل به سيده أمية بن خلف نكالا شديدا ، وكان بلال لا يعبأ بالعذاب ويردد أثناء تعذيبيـــه: أحد، أحد، الله أحد، ومنهم أيضا عمار بن ياسر وأباه وأمه وكان المشركون يضربون المسلم ويمنعون عنه الماء والطعام حتى يرتد عن دينه ويعلن ايمانه بآلهتهم وكان بعض المسلمين ينطق بكلمة الكفر هربا من الأذى، وقلبه عامر بالإيمان وقد فرق الله سبحانه وتعالى بين هؤلاء وبين المرتدين عن الاسلام فى الآية الكريمة: "ومن كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمـــئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهـــم عـــذاب عظيم" (النحل/ ١٠٦).

وكان لأبى بكر الصديق مواقف مشرفة خلال تلك الفترة التى عـــانى فيها المسلمون، فكان ينفق أمواله فى شراء العبيد المسلمين ويعـــتقهم حتـــى يخلصهم من المشركين.

٤- هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة :

لما اشتد أذى المشركين للمسلمين، وأدرك الرســـول (ﷺ) مـــا ينـــال أصحابه من البلاء، وعدم مقدرته على حمايتهم ومنع الاضطهاد عنهم، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بهـــا ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل لكم فرجا ممـــا أنـــتم فيه"، فتسلل عدد من أصحاب رسول الله (ﷺ) إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة

وقرروا الفرار بدينهم إلى الله ، وكان عددهم أول الأمر أحد عشر رجلاً وأربع نسوة وكان ذلك فى العام الخامس من بدء الدعوة الإسلامية، وركب المهاجرين مركبين كانتا تحملان المتاجر إلى الحبشة.

ويقال أن بعض مشركى قريش قد علموا بأمرهم فخرجوا فى أثرهم ليردوهم ولكنهم وصلوا إلى الساحل فلم يدركوا منهم أحداً، ثم تتابعت هجرة المسلمين إلى الحبشة حتى بلغ عدد المهاجرين ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة سوى أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارا أو ولدوا بها. وكان من بينهم عثمان بن عفان وزوجة رقية بنت الرسول (ﷺ) والزبير بن العوام، وعبدالله بن عوف، وجعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عميس، وعمرو بن سعيد بن العاص وأخوه خالد.

ولنا أن نتساءل عن الحكمة من وراء اختيار الحبشة دون سائر الأقطار لهجرة أصحاب النبى (ﷺ) واشارة النبى عليهم بذلك؟

ويبدو أن الرسول (ﷺ) قد استبعد فكرة لجوء المسلمين إلى أحدى القبائل العربية لما لمسه من إعراضها عن دعوته عندما اجتمع بوفودها فى مواسم الحج وقد أحجمت بعض القبائل العربية بل معظمها فى بداية الدعوة الإسلامية عن تأييد الرسول (ﷺ) إما تمسكا بدينها الوثنى، أو خوفا من معاداة قريش التى كانت تتمتع بنفوذ قوى لدى القبائل العربية وكانت تتزعم حركة التجارة ولها معاهدات ومصالح تجارية مشتركة مع معظم القبائل فى شبه الجزيرة العربية. كما كانت بلاد اليمن خاضعة فى ذلك الوقت للنفوذ الفارسى، وكان الفرس يدينون بالمجوسية، وكان التنافس فى بلاد اليمن شديدا بين الجاليتين اليهودية والمسيحية، مما جعل الهجرة إليها مغامرة غير مأمونة العواقب.

وكانت الهجرة إلى الحيرة أو الشام تحوطها المصاعب لما كانت تعانيه تلك المناطق من الاضطرابات بالاضافة إلى بعد المسافة وصعوبة الارتحال إليها على هؤلاء المهاجرين المستضعفين الذين يخرجون من ديارهم مستخفين هربا من مطاردة قريش لهم، كما كانت لقريش علاقات تجارية قوية مع تلك الاقاليم ومصالح اقتصادية متبادلة ورحلات تجارية فى أوقات معلومة ، وكان من السهل على قريش أن تطلب رد المهاجرين إلى تلك المناطق وقد تجد استجابة من قبائلها التى تهتم بمصالحها التجارية ولا يهمها أمر الدين الجديد فى شيء.

وكانت الحبشة هى أقرب الأقاليم إلى مكة التى يمكن أن يجد فيها المهاجرون الأمان على حياتهم ومعاشهم، فكانت معروفة للمسلمين الذين كانوا يغشونها للتجارة، ولعل الهدف الحقيقى من وراء اختيار الحبشة مهجرا للمسلمين أن الحبشة كانت تدين بالمسيحية ومن السهل الحصول على تأييد شعب وملك يؤمن بالمسيحية، وهم أهل كتاب مما قد يؤدى إلى انتشار الاسلام فيها وتكون سندا وقوة للمسلمين.

وكيفما كان الأمر فإن المسلمين المهاجرين إلى الحبشة صادفوا فيها معاملة كريمة، وأحسن ملكها "النجاشى" استقبالهم وأمنهم على حياتهم ومنحهم حرية العبادة وعاشوا فى استقرار ورغد من العيش.

وتروى المصادر التاريخية أن قريشا خشيت من مغبة تأييد الحبشة للمسلمين وخطورة استقرارهم بها فرأت أن تطاردهم هناك حتى لا يستقر لهم المقام فيها فدبروا مؤامرة لاخراجهم منها، وأرسلوا إلى الحبشة رجلين منهم هما عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص يحملان إلى النجاشى هدايا نفيسة ويحملون إلى بطارقة النصارى أيضا الهدايا، أملا فى كسب تأييدهم

لمطالبهم، وعندما اجتمع بهما ملك الحبشة قالا له: "أيها الملك أنه قد ضـوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم، لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا، وأعلـم بمـا عابوا عليهم وعاتبوهم فيه".

ولكن النجاشى رأى ألا يتخذ قرارا حتى يستمع إلى المسلمين ويعرف حقيقة دينهم، فلما اجتمع المسلمون عنده تكلم عنهم جعفر بن أبى طالب فقال له: "أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتـة، ونـأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنـا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه مـن الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانـة، وصـلة الـرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء ونهانا عن الفـواحش؛ وقـول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننـا وبـين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فـى جـوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك".

فقال له النجاشى: هل معك مما جاء به عن الله شىء، فقال جعفر: نعم، قال: فاقرأه على، فقرأ عليه جعفر بعض آيات (سورة مريم) وفيهـا حـديث ميلاد المسيح، فبكى النجاشى حتى أخضلت لحيتـه وبكـى أسـاقفته حتـى

اخضلت مصاحفهم حين سمعوا ما قرأه عليهم من القـــرآن ثــم قـــال لهــم النجاشي: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكلة واحــدة ورفــض النجاشي أن يسلم المسلمين إلى وفد قريش ومنحهم الأمان فــى بــلاده. ورد على المشركين هداياهم التى احضروها معهم لكسب تعاطفه.

وقد زاد حقد المشركين لموقف النجاشي من المهاجرين وتأييــده لهــم وعدم الإستجابة لطلبهم بتسليمهم له، وقوى جانب المسلمين وتدعم مــوقفهم باسلام رجلين من عظماء قريش وقادة الرأى فيهم هما حمزة بن عبد المطلب عم الرسول وعمر بن الخطاب، ويروى عبدالله بن مسعود عن اسلام عمــر فيقول: ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب. فلمـــا أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

٥- مقاطعة المسلمين وأنصارهم:

أخذ الاسلام ينتشر بين القبائل العربية انتشاراً واسعاً، فتشاورت قريش لاتخاذ موقف موحد ضد المسلمين وأجمعوا رأيهم على مقاطعة بنى هاشــم وبنى عبد المطلب اجتماعيا واقتصاديا، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم من أنفسهم، ولا يبيعون لهم ولا يبتاعون منهم حتى يتخلوا عن دعــوة الرســول (ﷺ) ويسلمونه لهم وكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ما جاء فيهـــا، ثــم علقوها فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم.

فلجأ بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى شعب من شعاب مكـــة، وظلـــوا منبوذين ما يقرب من ثلاث سنوات يأكلون القليل ولا يصل إليهم شـــيء إلا سرا عن طريق بعض شرفاء قريش ومنهم هشام بن عمرو الذى كان يـــأتى بالبعير وقد أوقره طعاما ويذهب به ليلا حيث يقيم بنى هاشـــم وبنـــى عبــد المطلب وكان الرسول ومن تبعه من المسلمين لا يستطيعون الاتصال بأحــد

إلا فى الأشهر الحرم، التى كان يستغل الرسول (ﷺ) ما فيها من أمان فينزل إلى القبائل الوافدة على مكة ليدعوهم إلى الاسلام.

ولم يلبث هشام بن عمرو حتى سعى إلى نقض ما جاء فى الصحيفة واستطاع أن يجمع حوله بعض المؤيدين وذهب إلى الكعبة حيث طاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال: "يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبيعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة" فعارض أو بجهل فى ذلك ولكن "مطعم بن عدى" قام ليمزق الصحيفة فوجد الأرضة (دويبة تأكل الخشب والورق) قد أكلتها إلا عبارة باسمك اللهم وبذلك انتهت مقاطعة قريش للرسول وقومه، وعاد بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى ديارهم بعد فترة من المعاناة القاسية مات فيها البعض من شدة الجوع.

٦- محاولة قريش لعقد مصالحة :

مضى النبي (ﷺ) يدعو الناس إلى الاسلام وقد أخذ عدد المسلمين فى الزيادة، وكان بعض القريشيين خلال ذلك يتعرضون للرسول (ﷺ) بالأذى، ذلك النوع من الأذى الذى لا يحمل خطرا على حياته بقدر ما يحوى منغصات ومضايقات له عليه السلام فى صلاته وفى حياته الخاصة، وكان هناك نفرقليل من بيت الرسول هم الذين تعرضوا له بالأذى منهم أبى لهب بن عبد المطلب والحكم بن العاص بن أمية. وكما يروى ابن هشام أن أذاهم كان لا يتعدى القاء الحجارة والقاذورات على داره.

وكان مشركي قريش حتى ذلك الوقت يأملون فى أن يجدوا حلا مقبولا للنزاع بينهم وبين محمد (ﷺ) ، ويروى ابن اسحاق أن أشراف قريش بعد أن فشلت خطتهم فى مقاطعة بيت النبوة فكروا فى عقد مصالحة مع الرسول

(ﷺ) فذهب وفد منهم إلى أبى طالب يتزعمه: عتبة بن ربيعة وشيبه بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، فقالوا: "يا أبا طالب، أنك منا حيث قد علمت .. وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه".

فبعث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال: يا ابن أخى: هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك، فقال رسول الله (ﷺ) : نعم، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات، قال: تقولون: لا اله الا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفق البعض بأيديهم عجبا، وقالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلاها واحدا أن أمرك لعجب، وتفرق المجتمعون دون اتفاق .

ونستنتج من الرواية السابقة أن قريشا كانت تهدف إلى المصالحة وكانوا على استعداد لأن يتركوا الرسول (ﷺ) ينشر دعوته كيفما شاء على أن يكف عن عيب دينهم وسب آلهتهم ولكن الرسول مكلف من قبل السماء بالمضى فى طريق الدعوة الاسلامية إلى هدفها الأسمى، وأنزل تعالى فى هذه الحادثة قوله: "ص، والقرآن ذى الذكر، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق" إلى قوله: "أجعل الآلهة إلها واحدا أن هذا لشىء عجاب، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم أن هذا الشىء يراد، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا الا اختلاق" (سورة ص ١-٦).

ويحدث بعد ذلك تطور له خطورته على مسيرة الأحداث، ففى شهر شوال من السنة العاشرة من نزول الوحى، فُجع الرسول (ﷺ) بموت عمه أبى طالب الذى كان خير نصير له والحائل بينه وبين مشركى قريش والمانع

لهم عن التعرض له بالايذاء، كما توفت زوجته الوفية خديجة في نفس الشهر، وكانت خديجة بعطفها عليه ومواساتها له في الشدائد كالواحة الرطبة في صحراء ملتهبة، وكان لفقدهما تأثير كبير على الرسول (ﷺ) وحزن لموتهما حزنا عميقا حتى سمى عام موتهما بعام الحزن.

وكانت وفاة أبي طال ايذانا بانطلاق قريش في ايذاء النبي دون مانع، وتجرأ المشركون على التعرض له في طريقه ووقت صلاته وطعامه، وكان الرسول يقول "ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبي طالب" وأصبح بقاء الرسول (ﷺ) في مكة في ظل تلك الأحوال محفوفا بالأهوال والمخاطر، وأدرك أن تأييد مكة لدعوته أمر في غاية الصعوبة ؛ ففكر في اللجوء إلى مكان آخر لعله يصادف توفيقا وقبولا لدى قومه وأهله.

فخرج الرسول (ﷺ) إلى الطائف يلتمس النصرة من بطون ثقيف والمنعة بهم من قومه، وكان أهلها يضارعون قريشا في الشرف والقوة، وكان النبي (ﷺ) يرجو أن يجد منهم قبولا لدعوته، فعمد إلى جماعة من أشرافهم فدعاهم إلى الاسلام، ولكن دعوته لم تلق قبولا لديهم وسخروا منه وحرضوا عليه سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ويطاردونه. واضطر إلى العودة إلى مكة دون تحقيق هدفه، ولم يستطع أن يدخلها إلا في حماية المطعم بن عدى زعيم بني نوفل، لأن قريشا اعتبرته ثائراً عليها خارجا عن تقاليدها.

٧- الهجرة إلى يثرب (المدينة):

في ظل تلك الظروف، قويت معارضة قريش للنبي (ﷺ) ووقوفها في طريق دعوته ، ولكن النبي (ﷺ) مدفوعا بحماسة قوية لا تعرف اليأس أو التقاعس استمر في اعلان دعوته ، وأخذ يعرض نفسه في مواسم الحج

والتجارة على الوافدين إلى مكة من القبائل، يدعوهم إلى عبادة الله الأحد والدخول في دين الإسلام ويسألهم التأييد والمؤازرة ، وكان لا يسمع بقادم إلى مكة من العرب له اسم وشرف بين قومه إلا تصدى له فدعاة إلى الله ، وعرض عليه ما عنده.

والواقع أن دعوة النبي (ﷺ) وعرضه لنفسه على القبائل العربية لم تجد قبولا لديها في تلك الفترة من تاريخ الدعوة، لأن القبائل في معظمها كانت تعمل حسابا لقريش ولا ترغب في معاداتها حرصا على مصالحها الاقتصادية المرتبطة بتجارة قريش النشطة في شبه الجزيرة العربية وخارجها، وفى نفس الوقت فإن قريشا كانت تراقب نشاط النبي (ﷺ) عن كثب، وثبت دعايتها ضد تعاليمه ، وتحذر القبائل من الاستجابة له والانصياع لتعاليمه، فكان عمه أبو لهب ينادى في وفود القبائل "إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزه من أعناقكم إلى ما جاء من البدعة والضلالة فلا تطيعوه".

ولكن الأمر كان جد مختلف عندما عرض النبي نفسه ودعوته على جماعة من أهل يثرب من قبيلة الأوس، قدموا إلى مكة في العام العاشر من البعثة النبوية يلتمسون تأييد قريش وتحالفها معهم ضد جيرانهم من الخزرج،/ وقد استمع الوفد إلى الرسول (ﷺ) وعاد إلى يثرب دون أن يحصل على بغيته من مساندة قريش وتحالفها، ولكن كان يحمل معه بذور الدعوة المحمدية رغم ان واحدا فقط من الوفد هو الذى أعلن إسلامه وهو أياس بن معاذ.

ومن الضرورى أن نلقى نظرة سريعة على أحوال مدينة يثرب والتى عرفت بعد الهجرة باسم -المدينة المنورة- قبل انتقال المسلمين إليها لتصبح محور الأحداث المهمة في تاريخ الاسلام فيما تلا ذلك من سنين.

فيثرب تقع فى واحدة بها سهول خصبة وتبعد حوالى ثلاثمائة كيلومتراً إلى الشمال من مكة ويمر بالقرب منها الطريق التجارى الذى تشقه القوافل من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى الشام شمالا.

أما سكان يثرب فكانوا يمثلون ثلاث قوى رئيسية، هى قبائل الأوس، وقبائل الخزرج، واليهود، وتذكر الروايات التاريخية أن جماعات من اليهود منذ عهد موسى قد هاجروا من جنوب فلسطين وبيت المقدس واستقروا بمنطقة يثرب واستقروا فى السهول الخصبة وزرعوها فاستقرت لهم الأمور وعاشوا فى رغد من العيش، ثم نازعتهم بعد ذلك السيادة فى يثرب قبائل محاربة قوية جاءت من الجنوب أهمها قبائل الأوس والخزرج وهما فرع من قبائل الأزد اليمنية التى هاجرت شمالا بعد اضطراب الأحوال فى اليمن فى أعقاب انهيار سد مأرب.

وحين وصل الأوس والخزرج إلى منطقة يثرب استقروا بجوار اليهود فى مضاربهم، وكاد اليهود ينظرون إلى تلك القبائل فى البداية باستعلاء، ثم استخدموهم فى الزراعة واعتبروهم فى حكم الموالى ولكن الأوس والخزرج لم ترض بذلك الوضع واستطاعوا أن يتغلبوا على اليهود وأن يسودوا مناطق واسعة من السهل ويبنون مساكن وحصون على غرار ما يفعله اليهود ، وظل اليهود رغم ذلك محافظين على بعض مواقعهم فى السهل وحصنوها بحصون قوية لحمايتها.

لم توفق قبائل الأوس والخزرج فى التعاون فيما بينهما فكثرت بينهما المنازعات والحروب القبلية وكان الخزرج يفوقون الأوس بقوة الشكيمة والضراوة فى القتال مما مكنهم من الحفاظ على استقلالهم وممتلكاتهم، وغالبا ما كان الأوس يلجأون إلى اليهود لمساندتهم فى حروبهم ممع الخزرج

وكان اليهود يساندونهم ، ويرحبون بتلك المنازعات بين القبيلتين خوفا من اجتماعهما فى حلف ضدهم قد يؤدى إلى الاضرار بمصالحهم.

وهكذا يتضح أن يثرب قبل الهجرة كانت تعانى من الصراع والحروب القبلية بين الأوس والخزرج، وكان اليهود موزعين فى ثلاث جماعات قبلية رئيسية هى: بنو قريظة، وبنو قينقاع ، وبنو النضير وجماعات أخرى صغيرة.

أما من الناحية الدينية، فكان اليهود يسخرون من وثنية العرب ويعيرونهم بها، ويزهون عليهم بأنهم أهل كتاب ويهددونهم بقرب ظهور نبي من بينهم يبلغون به السيادة على خصومهم، مما آثار مخاوف الأوس والخزرج على السواء، ويروى ابن هشام عن رجال من الأنصار قولهم: "إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه، لما كنا نسمع من رجال يهود: كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا هم أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا ممنهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم".

والواقع أن مجاورة الأوس والخزرج لليهود واختلاطهم بهم قد أضعفت الوثنية فى نفوسهم، وهيأت أفكارهم لقبول فكرة دين سماوى يدعو إلى وحدانية الله ويؤمن بالبعث والحساب، مما جعل أهل يثرب أكثر استعداداً لقبول أفكار الدعوة الاسلامية من أهل مكة الذين يعيشون فى بيئة متمسكة بتقاليدها أشد التمسك، وتعتبر ديانتها الوثنية مصدر خير وثراء ونفوذ لها على القبائل.

لذلك كان استقبال أهل يثرب من الأوس والخزرج للدعوة الاسلامية عظيما، وترحيبهم بها كبيرا، فقد شعروا بأن ما يدعوهم إليه محمد (ﷺ)

يشبه ما يبشر به اليهود وما توعدوهم به من ظهور نبـــي بيـــنهم، ورأوا أن يسارعوا إلى تأييده والانضواء تحت لوائه حتى لا يسبقهم اليهود إلى ذلـــك، وفى نفس الوقت فإن الأوس والخزرج قد ضاقت بكثرة المنازعات والحروب فيما بينهما وما تؤديه هذه الخصومات من كوارث وويلات على الطـــرفين، ووجدوا فى الدعوة الاسلامية والالتفاف حول هدف واحد منقـــذا لهـــم مـــن صراعهم القبلى، وجامعا لشملهم ولا سيما وقد خرجوا وشيكا مـــن حـــرب طاحنة لحقت فيها الهزيمة بقبيلة الخزرج على يد الأوس وحلفائها من اليهود وهى الحرب المعروفة بيوم (بُعاث) مكان بالقرب من المدينة.

ففى موسم الحج الذى تلا يوم بعاث الموافق العام الحادى عشر للبعثة المحمدية، أقبل جماعة من الخزرج إلى مكة للحج تضم ستة من شـــيوخهم، فاجتمع بهم النبي (ﷺ) فتلى عليهم آيات من القرآن، ودعاهم إلى الاســـلام، وتأييده فى دعوته، فأجابوه، وأسلموا على يديه، وقالوا له: "إنا تركنا قومنـــا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى الله أن يجمعهـــم، وســـنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذاالـــدين، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك".

- ***بيعة العقبة الأولى . (و بيعة النساء)*** :

وفى العام التالى الموافق للعام الثانى عشر من البعثة النبوية، حـــضر إلى مكة أثنا عشر شخصا من الخزرج للحج، فاجتمع بهم النبـــي (ﷺ) فـــى مكان بالقرب من مكة يعرف بالعقبة حيث استمع الوفـــد الخزرجـــى إليـــه، وبايعوه على الاسلام ونصرته، وكان بين الوفد عبادة بن الـــصامت الـــذى يصف هذا الحدث بقوله: "كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عـــشر رجلا، فبايعنا رسول الله (ﷺ) على ألا نشرك بالله شـــيئا، ولا نـــسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نعصيه فى معروف، وقال لهم رسول الله: فـــإن

وفيتم فلكم الجنة، وأن أفشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له، وان سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله، إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم"، وتسمى هذه البيعة فى كتب السيرة ببيعة العقبة الأولى أو ببيعة النساء، ويقال فى سبب تلك التسمية الأخيرة أن النبي (ﷺ) بايع على نفس تلك الشروط نساء قريش حين دخلن الاسلام بعد فتح مكة.

وبعد الفراغ من مناسك الحج، رجع هؤلاء القوم إلى يثرب، وبصحبتهم مصعب بن عمير من بنى عبد الدار، من السابقين إلى الاسلام المتحمسين لدعوته، أرسله النبى (ﷺ) معهم ليعلمهم الاسلام ويفقههم فى الدين ويقرئهم القرآن ويؤمهم فى الصلاة وذلك لأن قبائل الأوس والخزرج كانت مازالت على عداوتها وكانت كل قبيلة يسوؤها أن يؤمها فى الصلاة فردا من القبيلة الأخرى.

وأقام مصعب بن عمير بدار سعد بن زرار، ونجح فى مهمته نجاحا كبيرا، واستطاع أن ينشر الاسلام فى يثرب حتى لم تتبق دار إلا وفيها مسلم أو مسلمة، وانضم إلى صفوف المسلمين العديد من زعماء يثرب واشرافها منهم أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ سيد بنى عبد الأشهل من الأوس فعندما أسلم ذهب إلى قومه فى ناديهم وقال لهم: يابنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى بكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا. قال: فإن كلام نسائكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قيل: فما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا أمرأة الا مسلما أو مسلمة.

- **بيعة العقبة الثانية** :

وفى السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية عاد مصعب بن عمير الى مكة فى موسم الحج وبصحبته ثلاثة وسبعون رجلا من الأوس والخزرج

وأمرأتان، والتقوا بالنبى (ﷺ) على موعد بالعقبة بعد انتهاء مراسم الحج ، وكان اللقاء سريا فى جنح الظلام ويروى الطبرى أن العباس عم النبى قد حضر هذا الاجتماع وكان لايزال على دين قومه، ولكنه حضر مع ابن أخيه بدافع من رابطة الدم وليطمئن على سلامة موقفه وحصوله على الأمان والحمايه اذا هاجر الى يثرب، ولذلك كان العباس أول المتكلمين، فأعلن بوضوح أن محمدا قد أزمع الانحياز إلى يثرب واللحاق بأهلها، فإما أن يؤيدوه ويساندوه بقوة وعزم ولا يتخلون عنه فى شدة، أو يتركوه آمنا فى قومه. ثم تكلم النبى (ﷺ) فتلا بعض القرآن، ودعا الى الله ورغب فيه ثم قال: "أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم".

فأخذ كبير الوفد اليثربى "البراء بن معرور" بيده ثم قال: "نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا -يقصد نساءنا- فبايعنا يارسول الله، فإنا والله أهل الحروب، وأهل الحلقة (الدرع) ورثناها كابرا عن كابر".

فاعترض الحديث أحد رجال يثرب هو (الهيثم بن التيهان) فقال: إن بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها -يقصد يهود يثرب- فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فابتسم رسول الله (ﷺ) ثم قال: "بل الدم الدم، والهدم الهدم -يقصد زمتى من زمتكم وحرمتى من حرمتكم- انا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم" .

فلما تمت البيعة، طلب النبى من أهل يثرب أن يختاروا من بينهم اثنى عشر نقيبا، فأخرجوا له تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فقال لهم النبى: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، وأنا كفيل على قومى. وتعرف تلك البيعة فى

المصادر التاريخية: ببيعة العقبة الثانية أو العقبة الكبرى، أو بيعة الحرب، لأن الرسول بايع أهل يثرب على حرب الأسود والاحمر.

وهكذا وجد النبى (ﷺ) فى مدينة يثرب وأهلها ملجأ وملاذا ، وعد النبى (ﷺ) بعد تلك البيعة فردا من أهل يثرب له مالهم وعليه ما عليهم وضمن حمايتهم وتأييدهم له، وأصبح ينتمى الى يثرب وقبائلها أكثر من انتمائه الى وطنه مكة وقبيلته قريش، وقد أخفى المسلمون خبر تلك البيعة عن قريش لأن حماية أهل يثرب للنبى (ﷺ) تبدأ بحلوله بينهم، ولكن قريشا علمت بخير البيعة، وأرادت أن تستوثق من الامر من بعض حجاج يثرب الذين لم يحضروا البيعة فأكدوا عدم حدوث ذلك لعدم معرفتهما بالأمر، وكانوا صادقين فى قولهم، ولم تتأكد قريش من أمر البيعة الا بعد أن كان حجاج يثرب قد غادروا مكة فى طريقهم الى بلادهم. وتمكن الوفد من العودة بسلام ماعدا سعد بن عبادة الخزرجى الذى لحقت به قريش وهو فى طريق العودة فقبضوا عليه ونكلوا به، ولكنه استغاث برجال من قريش كانت تربطه بهم بعض المعاملات التجارية، فأغاثوه وأطلقوا سراحه.

وفى أعقاب تلك الاحداث أمر النبى (ﷺ) أصحابه بالهجرة إلى يثرب والإنضمام إلى إخوانهم من الأنصار، وقال لهم "ان الله عز وجل قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها" فأخذ المسلمون يخرجون من مكة أفرادا وجماعات متجهين الى يثرب، وكان معظم المهاجرين يتسللون من مكة خلسة حتى لا يشعر المشركون بخروجهم، وقد صادف المهاجرون ترحيبا قويا من إخوانهم فى الدين من أهل يثرب وكانوا يستضيفونهم فى دورهم، ويواسونهم ويخففون عنهم وحشة ترك الوطن والأرض والمال، ولا يمنعون عنهم شيئا من أموالهم.

- **مؤامرة قريش وأحداث هجرة الصاحبين**:

وأقام الرسول (ﷺ) بمكة بعد أن غادرها معظم المسلمين، ينتظر أمر الله له بالهجرة، ولم يتخلف عن الهجرة أحد من المسلمين الا من قهر على أمره بالحبس أو فتن عن دينه، وبقى أيضا على بن أبى طالب وأبى بكر الصديق وبعض الموالى بالقرب من النبى (ﷺ)، وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن الرسول (ﷺ) فى الهجرة، فيطلب منه التريث فى ذلك ويقول له: لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبا" وظل النبى فى مكة تحت مراقبة عيون قريش لا تدرى ماذا ينوى عمله وماهى خطوته التالية، وتيقنت قريش من الخطر الداهم الذى يتهددها اذا قرر الرسول (ﷺ) الهجرة الى يثرب، واجتمع هناك بحشود المسلمين من المهاجرين والانصار.

أصبحت يثرب بمثابة مدينة اسلامية يمكنها أن تكون مركز انطلاق ضد قريش لتدمير تجارتها وقطع السبل على قوافلها، والقضاء على عقائدها ومركزها الدينى، فكان لامناص على قريش من التدبر واتخاذ الحيطة، وإعداد العدة قبل وقوع الخطب،فعقدت قريش فى دار الندوة اجتماعا ضم زعمائها واشرافها وتشاورا فيما تكون خطوتهم التالية تجاه محمد (ﷺ) لمنع مايتهددهم من خطر، فاقترح أحدهم ان يقيدوا الرسول (ﷺ) ويسجنوه فى أحد الدور حتى لايتمكن من الهجرة، واقترح آخر اخراجه من مكة ونفيه خارجها.

ولكن تلك الاقتراحات لم تجد قبولا لدى المؤتمرين" فقال ابو جهل بن هشام: "والله ان لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، فقالوا: ماهو؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتا شابا جلدا نسيبا وسيطا، ثم نعطى لكل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدون إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا، فلا يقدر بنو

عبد مناف على حرب قومهم جميعا، ورضوا منا بالعقل والدية "فعقلنا لهـم". وصادف هذا الاقتراح قبولا لدى الحاضرين وتفرقوا بعـد مـوافقتهم علـى تنفيذه.

ولكن الله سبحانه وتعالى حمى رسوله من كيد المشركين فنزل علـى الرسول قوله تعالى: "واذ يمكر الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجـوك ويمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين" (الانفال/٨/٣٠). وجاء جبريـل بالوحى الى الرسول (ﷺ) بألا يبيت فى فراشه تلك الليلة، وكان المـشركون قد ازمعوا قتله خلالها، فلما كان الليل اجتمع على داره جماعة من المشركين تم اختيارهم تبعا لاتفاق دار الندوة ومن بينهم ابى جهل بن هشام، انتظـارا لنوم النبى فيثبون عليه ليقتلوه، ولكنه تمكن من الخروج من داره آمنا وقـد غشى الله عليهم فلم يبصروه، وتوجه إلى صديقه أبى بكر وأطلعه على ماجاء فى الوحى من تآمر قريش عليه، وأنه قد أذن له بالهجرة، فطلب أبـو بكـر مصاحبته فأذن له.

تسلل النبى (ﷺ) وصاحبه من مكان خلف دار أبـى بكـر حتـى لا تلمحهما عيون المشركين ، ومضيا فى الطريق المؤدى الـى يثـرب حتـى وصلا غارا بجبل ثور قريبا من مكة فدخلا للاختباء فيه ومراقبة تحركـات المشركين بعد اكتشافهم اختفاء النبى (ﷺ) وأمر أبو بكر ابنـه عبـد الله أن يستمع لهما مايقوله المشركون فى امرهما نهارا، ثم يأتيهما ليلا بما عنده من الأخبار، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه كالعادة فى مراعى أهل مكة، فاذا جاء المساء أراح غنمه قرب الغار حتى يتمكن هو والرسول مـن الحصول على حاجتهما من اللبن أو الذبح، وكانت اسماء بنت أبـى بكـر تتسلل اليهما بحاجتهما من الطعام تحت جنح الظلام.

وفى الصباح أدرك المتآمرون حول دار الرسول (ﷺ) ما أصابهم من فشل بعد أن عرفوا أن فراشه ينام فيه ابن عمه على بن ابى طالب، فانطلقوا للبحث عنه واقتفاء أثره فى كل مكان حتى وصلوا أثناء بحثهم إلى غار ثور، ولكن الله أنقذ رسوله بأن ألهم حمامتين فوضعتا بيضهما عند مدخل الغار وألهم العنكبوت فنسجت على بابه، وقال قائل منهم: دخلوا الغار فقال امية بن خلف: وما اربكم فى الغار؟ ان فيه لعنكبوتا أقدم من محمد، وقال آ خر انه لو دخل محمد الغار لكسر البيض ولتفسخ العنكبوت.

وشعر الصاحبان بالرهبة لقرب المشركين منهما، وكان خوف ابو بكر عظيما وحزنه عميقا، لأنه لم يكن يخشى على نفسه بقدر خشيته على صاحبه فناله لذلك هما كبيرا، وقال للرسول (ﷺ) إن قتلت أنا، فانما انا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة "فقال له الرسول (ﷺ) : لا تحزن، إن الله معنا، فنزل قوله تعالى: "إلا تنصروه فقد نصره الله" إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين، إذ هما فى الغار، إذ يقول لصاحبه، لا تحزن، إن الله معنا، فانزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا، والله عزيز حكيم" (التوبة/٤١).

ومكث الصاحبان فى الغار ثلاثة أيام حتى هدأت حركة البحث وخف نشاط المشركين حول المنطقة، فاستعدا للرحيل الى يثرب، فاستدعى أبو بكر عبدالله بن أريقط البكرى وكان قد استأجره دليلا لهما فى الرحلة، فجاء بالراحلتين اللتين أعدهما أبو بكر لهذا اليوم وانطلق الصاحبان إلى هدفهما وقد اردف ابو بكر -مولاه- عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق.

لم تيأس قريش واستمرت فى البحث عن الرسول (ﷺ) على أمل اللحاق به قبل وصوله يثرب حتى أنها رصد مائة ناقة مكافأة لمن يرشد عن

مكانه أو يأتى به، ولما بلغ اهل يثرب اخبار خــروج الرســول مــن مكــة فى طريقه اليهم، راحوا يترقبون قدومه كل يوم منذ مطلــع النهــار حتــى يشتد عليهم حر الشمس فيعودون إلى دورهم، حتى وصل النبى إلــى قبــاء يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول الموافق للعــام الثالــث عــشر من البعثة النبوية، وبينما هو بقباء لحق به على بــن ابــى طالــب بعــد ان أدى دوره فى التمويه على المشركين، ورد ماكان فى حــوزة النبــى (ﷺ) من ودائع لاصحابها من أهل مكة ، وأقام الرسول (ﷺ) فى قباء أربعة أيــام اسس خلالها مسجد قباء فكان أول مسجد أقيم فى الاسلام، ثم خرج الرسول (ﷺ) من قباء يوم الجمعة فى طريقه إلى يثرب وصلى بالناس الجمعة الاولى لاول مرة فى الطريق ودخل يثرب فى ١٦ ربيع الاول (٢٠ ســبتمبر ســنة ٦٢٢م).

ويبدأ بدخول الرسول (ﷺ) الى مدينة (يثرب) مرحلة جديدة حاسمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، فإن الهجرة النبوية تعد فى مقدمة الأحداث العالميــة الكبرى التى لعبت دورا خطيرا فى تاريخ الاسلام وتاريخ العالم كله.

الفصل الثالث

قيام دولة المدينة وإسلام أهل عُمان

أولاً : الأسس التي وضعها الرسول ﷺ للدولة الإسلامية الأولى .

١- بناء المسجد الجامع.

٢- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

٣- الصحيفة : دستور المدينة.

٤- تشريع الجهاد .

ثانياً : المراحل الأولى لإسلام أهل عُمان .

الفصل الثالث
قيام دولة المدينة وإسلام أهل عُمان

أولاً : الأسس التى وضعها الرسول ﷺ للدولة الإسلامية الأولى:

١ - بناء المسجد " الجامع " :

كان أول أهداف الرسول ﷺ عقب وصوله إلى المدينة إقامة المسجد الجامع لاتخاذه مكاناً لإقامة الشعائر الدينية، وليكون بمثابة مقر اجتماع المسلمين لبحث شئون مجتمعهم ودولتهم الناشئة. ويروى ابن هشام أن الرسول ﷺ عندما دخل مشارف يثرب، بركت ناقته بالقرب من منزل أبو أيوب خالد بن زيد من بنى مالك بن النجار، فنزل عليه الرسول ﷺ وسأل عن المربد (وهو مكان قرب المدينة) فقيل له: هو يارسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو، فاشتراه الرسول وأمر به أن يبنى مسجداً وعمل فيه رسول الله ﷺ بنفسه وشاركه العمل فيه المهاجرون والأنصار " .

وبجوار المسجد أقام الرسول داراً لسكناه وكانت على اتصال بالمسجد بحيث يمكن الخروج منها إلى المسجد مباشرة، وأصبح هذا تقليداً متبعا عند بناء المساجد فى المدن الجديدة التى أنشأها المسلمون فى أعقاب الفتح أن يقام مسكن الوالى ملاصقاً للمسجد الجامع حتى يكون قريبا من مركز تجمع المسلمين ومكان تعبدهم فكانت وظائف المسجد فى صدر الإسلام متعددة الأغراض .

وظل الرسول ﷺ مقيما بدار خالد بن يزيد حتى تم بناء مسجده ومسكنه فانتقل إليهما .

وكان مسجد الرسول يتكون من فناء صغير يحيط به جدار من اللبن مكشوف فى معظمه عدا جزءًا مسقوف خصصه النبى ﷺ لسكنى جماعة من أهل مكة لم يكن لهم مساكن .

وكانت قبلة المسجد الأول فى المدينة متجهة إلى بيت المقدس وكـــان المسلمون قبل هذا لهم حرية اختيار القبلة التى يتوجهون إليها فى صـــلاتهم، واستمر المسلمون يتوجهون فى صلاتهم منذ قدوم الرسول ﷺ إلى يثرب إلى بيت المقدس حتى حُولت القبلة إلى الكعبة قبل وقعة بدر بشهرين عندما نزلت الآية الكريمة (قد نرى تقلّب وجهك فى السماء فلنولينّك قبلة ترضاها، فــول وجهكَ شطر المسجد الحرام) (البقرة/١٤٤).

وكان عادة المسلمين فى ذلك الوقت الاجتماع للصلاة بغير دعوة أو نداء وكان بلال ينادى عليهم "الصلاة جامعة" وقد تكلم المسلمون فى ضرورة اتخاذ ما ينبه المسلمون إلى مواعيد الصلاة فاقترح بعضهم اتخـــاذ النـــاقوس مثل النصارى واقترح البعض الآخر اتخاذ البوق مثل اليهود، ولكن النبى ﷺ كره التشبّه باليهود والنصارى .

ويروى المؤرخون أن أحد المؤذنين وهو عبدالله بن زيد الخزرجـــى رأى، فى منامه شخصاً عليه ثوبين أخضرين وفى يده ناقوس فطلب منه بيعه له ليضرب به للصلاة، فقال: أنا أحدثك بخير لكم من ذلك: تقول: الله أكبــر، الله أكبر (إلى آخر الأذان كما هو معروف) فحضر عبد الله إلى الرسول ﷺ وقصّ عليه ما رأى، فقال له: إنه لرؤية حق، لقّن ذلك بـــلالا فإنـــه أنـــدى صوتاً. وهناك روايات أخرى أن الذى رأى تلك الرؤيا أو أيدها هو عمر بن الخطاب .

وكان الرسول ﷺ يلقى الخطبة على المسلمين فى ذلك المسجد وهو يستند إلى جذع نخلة ولما كثرت جماعة المسلمين وازدحم بهم المسجد اتخذ الرسول ﷺ لنفسه مجلساً مرتفعاً ليخطب عليه حتى يَراه الجميع ويسمعون صوته وهو المكان المعروف بالمنبر وكان عبارة عن منصة ترتفع عن الأرض ذراعان ولهما درجتان وسطح مربع الشكل وعلى جانبيهما حواجز ليستند عليها الرسول أثناء جلوسه .

٢- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

تحولت يثرب بعد هجرة الرسول ﷺ إليها إلى قلعة إسلامية وملجأ لجماعة المسلمين وأصبحت تعرف بمدينة الرسول ﷺ وتعرف الآن بالمدينة المنورة والمدينة لوجود قبر الرسول ﷺ بها .

والواقع أن الرسول ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة أصبح على رأس أهدافه؛ إقامة الاستقرار بين تلك الجماعات التى تسكن المدينة بعد الهجرة حتى تستطيع أن تواجه التحدى الكبير الذى عليها التصدى له خارجيا. وقد أصبح المجتمع المدنى فى ذلك الوقت يحتوى على ثلاث عناصر من السكان: العنصر الأول هم المهاجرون الذين لجأوا إلى المدينة فارين من ظلم قريش واضطهادها لا يحملون معهم إلا الدين والعقيدة وقد خلفوا وراءهم أموالهم وثرواتهم ، العنصر الثانى هم الأنصار من أهل المدينة الذين يمثلون أكبر قبيلتين هما الأوس والخزرج الذين دخلوا الإسلام ووقفوا بجانب الرسول وأيدوه منذ بيعتا العقبة الأولى والثانية والعنصر الثالث هم اليهود .

وكانت الخطوة الأولى أمام الرسول هى توحيد كلمة أهل المدينة من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج معتمدا فى ذلك على رابطة العقيدة الإسلامية التى جمعت بينهما لإزالة ما فى النفوس من أحقاد قديمة، وأطلق

عليهم مصطلح الأنصار أي الذين نصروا الإسلام وأيدوا رسوله ﷺ ، وبذلك اجتمع أفراد القبيلتين تحت شعار واحد يبعد بهم عن الصبية القبلية، واعتبار العقيدة الإسلامية سبيلاً للترابط بينهم وتوحيدهم وإدماجهم تحت هذا الإسم الواحد مما يوحى إليهم دائماً بالإتحاد والترابط فى سبيل هدف واحد مشترك وهو نصرة الدين الإسلامى والزود عنه .

كما جمع الرسول ﷺ كل من هاجر إلى المدينة من المسلمين تحت اسم (المهاجرين) ولعله بذلك كان يرمى إلى جمع القبائل العربية المختلفة تحت هذا الشعار العام حتى يزيل ما بقى فى النفوس من التعصب القبلى وحتى يتفرغ الجميع لنصرة الدين الإسلامى دون النظر إلى أصل قبائلهم وشعائرهم .

وكان على الرسول الكريم ﷺ أن يدبر سبل العيش أمام جماعات المهاجرين الذين تركوا ديارهم وثرواتهم فكان أن أخذ بنظام المؤاخاة الذى يقال أنه البديل الإسلامى للنظام العربى القديم وهو نظام الحلف، فعمد النبى ﷺ إلى التأليف بين الأنصار من مسلمى المدينة وبين المهاجرين من أهل مكة فجعل كل رجل من المهاجرين يؤاخى رجلاً من الأنصار وبذلك وزع الرسول ﷺ المهاجرين على الأنصار بأن صار كل اثنين أخوين وقال: "تآخوا فى الله أخوين أخوين". ثم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب فقال: هذا أخى . (انظر سيرة بن هشام) .

وعاش كل مهاجر من مكة مع أخ له من الأنصار، وقد جعل النبى لتلك القرابة الحرفية قوة الأخوة الحقيقية وقد أظهر الأنصار اخلاصاً وتفانياً فى تطبيق نظام المآخاة، وشارك المهاجرون أخوانهم من الأنصار فى أعمالهم التجارية وثرواتهم ولقوا منهم كل عون فى ممارسة حياتهم الجديدة،

فى المدينة، وفى ذلك نزلت الآية الكريمة (والذين تبوءو الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتو ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شُح نفسه فأولئك هم المفلحون) (الحشر / ٩) .

وظل المهاجرون والأنصار يتوارثون طبقا لنظام المؤاخاة حتى استقرت أحوال المجتمع الإسلامى فى المدينة واستقرت أحوال المهاجرين الاقتصادية ولم يعد هناك حاجة إلى الإستمرار فى ذلك النظام، ووضع نظام التوارث الإسلامى على أساس القرابة الحقيقية، ونزل التشريع بإلغاء ما سبق وذلك فى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الأنفال /٧٥) .

وقوله تعالى : (وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ) (الأحزاب /٦) .

فنظام المؤاخاة فى حقيقته كان نظاما مؤقتا الهدف منه تجميع الأفئدة ونبذ العصبيات القبلية وتوحيد الجماعة الإسلامية الناشئة فى المدينة، وبعد أن ألغى الشرع نظام التوارث عن طريق المؤاخاة استمرت آثار هذه المؤاخاة زمنا طويلا بين الماجرين والأنصار ودعمت وحدتهم وترابطهم .

٣- دستور المدنية (الصحيفة):

كتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم فيما عرف بالصحيفة وكان الهدف العام منها هو تقنين العلاقات فى الدولة الإسلامية ووضع الأسس التى تتبع فى معالجة القضايا الرئيسية داخليا وخارجياً .

ويتضح من استقراء نص الصحيفة التى أصدرها الرسول ﷺ فى العام الأول من الهجرة والتى أورد نصها ابن هشام فى كتابه عن سيرة الرسول ﷺ أنها تمثل دستوراً شاملا لتنظيم العلاقات فى المجتمع الإسلامى فى المدينة وبين هذا المجتمع وجيرانه فى الداخل، وتكشف تلك الصحيفة عن مقدرة عظيمة على التشريع ومعرفة بأحوال المجتمع المدنى وظروف طوائفه وفئاته، وقد أقرت الصحيفة مجموعة من النظم والمبادئ سار عليها المجتمع الإسلامى فى تلك الحقبة يمكن إجمالها فيما يأتى :

أ- حددت الصحيفة مفهوم الأمة الإسلامية بتعريفها تعريفاً شاملا متقدما راقياً تخطى ما كان معروفاً من النظم القبلية وما تعنيه من عصبيات ممقوتة تعتمد على رابطة الدم، كما جاء هذا المبدأ شاملاً ليضم إلى الأمة الجديدة كل من يعتنق الدين الإسلامى دون النظر إلى قبيلته أو أصله وبهذا المعنى ألغى النبي ﷺ الفواصل القبلية ولم يجعل لها أى وزن فى علاقة الدولة بأفرادها، وأصبح الإسلام ملكاً للشعوب التى تدخله مما جذب الناس وشجعهم على الإقبال عليه والمشاركة فى الحياة التى رسمتها الصحيفة للجماعة الإسلامية الأولى ونلاحظ هذا المعنى فى نص الصحيفة وفى مقدمتها على وجه التحديد إذ تقول: "هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس" وقد أكد القرآن هذا المعنى فى قوله تعالى: "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" (آل عمران/١١٠).

والواقع أن مبدأ دخول عناصر جديدة إلى الأمة الإسلامية تنعم بما ينعم به أفراد الأمة من حقوق وواجبات كان من المبادئ المهمة التى سار عليها الإسلام فيما بعد، كفلت له حيوية شديدة ومفهوم الأمة شمل كل من يقطن المدينة؛ المؤمنين منهم وغير المؤمنين واشترط على غير المؤمن أن يكون حليفا وسنداً ليصبح له حق المواطنة ، فكان بين الأنصار قوم لم يدخلوا الإسلام بعد ولكنهم أدمجوا فى الأمة، كما شملت أيضا سكان المدينة من اليهود ، وإن كانت درجة انتمائهم لا تتساوى مع المهاجرين والأنصار فقد فرّقت الصحيفة بين المؤمنين من أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل .

ب- تميزت الصحيفة بما قررته من مبادئ المساواة والغاء التمييز الطبقى وجعلت من القبائل تشكيلا اجتماعيا يخدم أهداف المجتمع الجديد، وتم تحديد العلاقة بين الأمة والقبائل وتوضيح الحقوق والواجبات .

وكان من أول تلك الأمور القضاء على حق الأخذ بالثأر الذى كان منتشراً بين القبائل لأن هدف هذه الأمة هو الحفاظ على السلام الداخلى فى المجتمع ومنع اندلاع الحروب القبلية التى قد تشغل الجماعة الناشئة عن المخاطر المحيطة بها، فإذا نشب اشتجار بين القبائل فيعرض على رأس السلطة بالمدينة لتحكم فيه بما يراه الله ورسوله طبقا لما جاء فى الصحيفة "وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ فإن مرده إلى الله عزوجل وإلى محمد ﷺ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ "فإذا أخل أحد بالأمن أو ارتكب عملا اجراميا فإن الأمة مطالبة بتوقيع العقوبة عليه وعلى أقرباء الجانى التصدى له متكاتفين لينال ما يستحق من عقوبة وعلى هذا تنص

الصحيفة "وإن المؤمنين المتقين على من بغى أو ابتغى ظلما أو عـدوانا أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتـل مؤمن مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن وإنكم مهما اختلفتم فيه من أمر فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ" .

ونتيجة لهذا التنظيم أصبح على القبائل أن تتنازل عن حقها فى الثأر وتحول إلى عقوبة يقع تنفيذها على عاتق الأمة وعلى من وقع عليه الظلم أن يختار طريق التنفيذ إما القصاص أو قبول الدية، وقد نصت الصحيفة نـصاً صريحا على ذلك"، وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود بـه إلا أن يرضى ولّى المقتول وأن المؤمنين عليه كافة " .

وقد أبقت الصحيفة على واجب القبيلة فى دفع ديات القتلـى وفـداء الأسرى لأن الأمة الناشئة لم تكن تملك المال اللازم للقيام بهذه المهمة، كمـا بقى للقبائل الاحتفاظ برابطة الولاء فلا يجوز لأحد أن يحـالف مـولى دون مولاه، بالإضافة إلى حق الإجارة للغرباء فيما عـدا إجـارة قـريش ومـن نصرها" .

جـ- أوضحت الصحيفة سياسة الجماعة الإسلامية تجاه الأخطار الخارجية فى هذا النص "وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس" فعلـيهم جميعا التكاتف لحماية المجتمع الجديد مما يقع عليه من عدوان سـواء أصاب هذا العدوان فردا أو جماعة، وكان هذا النظام من أهم تنظيمات الدولة الناشئة التى أصبح عليها أن تحمى جميـع مواطنيهـا وأصـبح واجب الثأر من الأعداء واقعاً على كاهل المؤمنين جميعاً وليس علـى كاهل أقارب المقتول فقط فتذكر الصحيفة "أن المؤمنين يبـئ بعـضهم عن بعض فيما نال دماء فى سبيل الله" أى أن المؤمنين بعضهم أوليـاء

بعض فيما ينال دماءهم وبذلك خرجت الحرب من المفهوم القبلى وهو الثأر للدم بل أصبح لها أهداف عامة تهم المجتمع الاسلامى الجديد كله وليس يخص جماعة دون غيرها وبذلك أصبحت الحرب أو السلام من صميم اختصاص الدولة فلا يصح لفرد أو جماعة أن يعقد سلاما أو يشن حرباً من دون موافقة الدولة وقد نصت الصحيفة على ذلك صراحة "وأن سلم المؤمنين واحدة، فلا يسالم مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم" مع التأكيد على حرمة أرض الدولة ومراعاة سلامتها من الداخل أو الخارج" وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة" .

وفى النهاية فقد أكدت الصحيفة على أحقية رئيس الجماعة الاسلامية فى حسم أى خلاف أو اشتجار بين أفراد الجماعة أو بين الجماعة وبين جيرانهم فالرسول ﷺ كان بمثابة المشرف والمنفذ لنصوص تلك الصحيفة التى نصت على: "وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ" .

د- دعت الصحيفة إلى أحد المبادئ المهمة التى سارت على نهجها الدولة الاسلامية وهو مبدأ حرية الأديان السماوية وحق أصحابها فى ممارسة شعائرهم الدينية وعدم التعرض لهم طالما يحافظون على نظام المجتمع الإسلامى ولا يخلون بواجباتهم فى عدم التآمر ضده أو التعاون مع أعدائه فقد قررت الصحيفة حرية العقيدة لليهود فى هذ النص "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم" وفى مقابل هذ الحق كان على اليهود موالاة المسلمين وعدم التآمر عليهم ومنحهم حق الدخول فى النظام الجديد للدولة بنفس الحقوق والواجبات التى يتمتع بها غيرهم من

المؤمنين "فإن من تبعنا من اليهود فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم " .

هكذا نظمت هذه الصحيفة المجتمع المدنى فى تلك الفترة ووضعت الأسس لقيام دولة الرسول ﷺ فى المدينة وكانت مهمة النبى ﷺ فى تلك المرحلة تتركز فى الدفاع عن مدينته وضمان الأمن لها باعتبار المدينة وحدة سياسية إسلامية لا ترتبط بالمناطق الأخرى فى الجزيرة العربية بأى التزام حتى ولو كان بها مؤمنين ، فكانت حق المواطنة فى المدينة لا تنطبق إلا على من هاجر إليها، وأصبح عضوا فى المجتمع الإسلامى الناشىء وقد أوضح القرآن الكريم ذلك فى نص صريح فقال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ) (الأنفال/٧٢) .

٤ - تشريع الجهاد وأهدافه :

حرص الرسول ﷺ منذ بداية الدعوة الإسلامية على دعوة الناس بالحجة والموعظة الحسنة وعن طريق الاقناع العقلى عملا بقوله تعالى: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (البقرة /٢٥٦) وقد ظل الرسول على تلك السياسية طوال فترة بقائه فى مكة التى امتد ثلاث عشرة سنة بعد البعث رغم ما أصابه وجماعة المسلمين من الضرر والأذى، ولكنهم صبروا على ذلك أملا فى النصر القريب ويبدو هذا فى قوله تعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ) (الأحقاف /٣٥).

ولكن الأحوال تبدلت بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ووضع نواة الدولة الإسلامية الأولى مما أوجب ضرورة حماية تلك الدولة من الأخطار التى تحوق بها من الخارج خاصة من جانب مشركى قريش الذين كانوا

يتربصون للانقضاض على الدولة الناشئة كما كان على الرسول ﷺ حماية الجبهة الداخلية فى المدينة من تآمر العناصر التى لم تستطع الاندماج مع المجتمع الجديد وخاصة اليهود ، لذلك أخذت الآيات القرآنية تنزل على الرسول ﷺ تباعا تدعو المسلمين إلى القتال والزود عن النفس والأموال والأعراض ، وأول ما نزل فى أمر القتال قوله تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ{٣٩} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) (الحج / ٣٩ –٤٠) .

وهكذا أوضحت الآية الأسباب التى أذن فيه اللمسلمين بالقتال لأنهم ظلموا وطردوا من ديارهم بغير حق بسبب اعتقادهم الدينى ثم نزلت آيات أخرى تشرع للقتال وتحرض عليه وتحدد أهدافه السياسية وهو الدفاع عن المسلمين وعقيدتهم الدينية بعيدا عن العدوان والفتنة فى قوله تعالى: (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة / ١٩٠)، وقوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ) (البقرة /١٩٣).

وقد وعد الله المسلمين المجاهدين فى سبيله بالنصر على أعدائهم فى الدنيا وبشرهم بالنعيم فى الآخرة وذلك فى قوله تعالى: (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) (النساء /٧٤)، وقوله: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠} يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ{٢١} خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (التوبة /٢٠ –٢٢).

ثانياً : المراحل الأولى لإسلام أهل عُمان :

تشير المصادر التاريخية وكتب الأنساب أن الإسلام قد عرف طريقه إلى عمان فى وقت مبكر من ظهور الدعوة الإسلامية، وأن هذا كان عن طريق مبادرات فردية جاءت من أهل عمان أنفسهم -على غير المألوف- فيروى أن أول من أسلم من العمانيين رجل يدعى "مازن بن غضوبة"[١] من سكان مدينة عمانية تسمى سمائل أو سمايل[٢] .

ويعرفنا أحد النسابين بمازن هذا فى قوله (وله خبر عجيب يخرج فى أعلام النبوءة من أخبار الكهان)[٣]. وحسب ما نجده من وصف للكهانة والكهان[٤] عند العرب قبل الإسلام ، فإن الرواية السابقة توحى بأن مازن بن غضوبة كان من مشاهير بلدته سمائل ومن علمائها وكهانها المعدودين لأن الكاهن غالباً ما يكون عفيف النفس يميل إلى العزلة وكثرة التأمل والتفكير الثاقب" وربما قويت النفس فأشرقت به على دراية الغائبات قبل ورودها "[٥]،

---

(١) هو مازن بن غضوبة أو الغضوب ، بن سبيعة بن شماسة بن حيان بن مر بن حيان بن أبى بشر ويرجع نسبه إلى الغوث بن طيء (انظر : أبو بكر محمد الهمدانى، عجالة المبتدى وفضالة المنتهى فى النسب)، (القاهرة ١٩٧٣) ص ٥٥، نور الدين السالمى، تحفة الأعيان ، ص ٢٦ .

(٢) الهمدانى، المصدر السابق، ص ٥٥، سرحان بن سعيد الأزكوى. المرجع السابق، ص٣٥، ويذكر صاحب الروض المعطار أن سمائل قرية بأرض عمان منها مازن ابن غضوبة الطائى (الحميرى، المصدر السابق، ص ٣٢٦) .

(٣) الهمدانى، المصدر السابق، ص ٥٥.

(٤) الهمدانى، نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٥) انظر: المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨، ج٢، ص١٧٥. وعن الكهانة والكهان ، انظر أيضاً، النويرى، نهاية الأرب (طبعة الهيئة العامة للكتاب)، ج٣، ص ١٢٨ وما بعدها، محمود شكرى=

وكان مازن يقوم على خدمة صنم مشهور فى بلدته سمائل يسمى (ناجر) كانت تعظمه بنو خطامة وبنو ناجية من طيء[١] .

وتختلط الحقيقة بالخيال فما رواه المؤرخون عن الطريقة التى أسلم بها مازن بن غضوبة، وعن كيفية معرفته بظهور الإسلام ، فيروى صاحب الروض المعطار وينقل عنه المؤرخون العمانيين أن مازن كان فى خدمة صنم فى الجاهلية – كما ذكرنا– فقدم له يوماً ذبيحة قرباناً فسمع صوتا خارجاً من الصنم يقول:

يا مازن اسمع تسر	**ظهر خير وبطن شر**
بُعث نبى من مضر	**بدين الله الأكبر**
فدع نحيتا من حجر	**تسلم من حر صقر**

ففزع مازن من ذلك، وبعد عدة أيام ذبح للصنم ذبيحة أخرى ، فخرج من الصنم صوتاً آخر يبشره بالنبى المرسل ، ويأمره بأن يتبعه لينجو بنفسه من نار جهنم .

وتستمر الرواية فتذكر أنه فى الوقت الذى كان فيه مازن يعانى الحيرة مما سمعه من الصنم، قَدِم رجل من الحجاز التقى بمازن وأخبره بدعوة الرسول ﷺ وظهور الإسلام وانتشاره فى المدينة[٢] .

=الألوسى ، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، (طبع القاهرة بدون تاريخ) ، ج ٣ ، ص ٣٦٩ وما بعدها .

(١) انظر الحميرى، المصدر السابق، ص ٣٢٦، السالمى، المرجع السابق ، ص ٣٦.

(٢) انظر التفاصيل: الحميرى، المصدر السابق، ص٣٢٦ – ٣٢٧، السالمى، المرجع السابق، ص ٣٦ – ٣٧ .

وإذا نحينا جانباً العنصر القصصى فى الرواية السابقة وما قيل عن صنم مازن الذى يقرض الشعر ويتحدث إلى سادنه، فإنه يمكن القول بأن مازن قد التقى برجل قادم من الحجاز، وتحدث إليه فأخبره عن الحدث المهم هناك وهو ظهور الرسول ﷺ وانتشار الدعوة الإسلامية، ولما كان مازن على قدر من العلم ويمارس الكهانة والسدانة، فقد أدرك من حديث الحجازى أهمية ما يدعو إليه الرسول ﷺ فحزم أمره على الرحيل ليلتقى بصاحب الرسالة ﷺ، ويبدو أن مازن قد سمع من الرجل ما يشير إلى أن الإسلام يدعو إلى التوحيد وينبذ عبادة الأصنام، فبادر بتحطيم الصنم الذى يسدنه، وشد رحاله إلى الحجاز وهناك التقى بالرسول ﷺ، وأعلن إسلامه بين يديه، وسأل الرسول ﷺ أن يدعو له أن يذهب الله عنه ولعه بالطرب وشرب الخمر، فدعا له الرسول ﷺ، فاستجاب الله لدعائه وأقلع عن هذه المحرمات[١].

ومن الغريب أننا لا نجد تاريخا محدداً لهذه الحادثة التى التقى فيها مازن بالرسول ﷺ، ولكن يتضح من الرواية العمانية أن مازن بعد عودته إلى بلدته، تمكن من أن يجذب أعدادا من أهل عمان بوجه عام ومن بلدته سمائل على وجه الخصوص إلى الدخول فى الإسلام ولعل ما ساعده على ذلك هو مكانته الدينية وشهرته بين الناس[٢]. ويقال أنه بنى بسمائل مسجدا سنة ٦هـ/ مازال يحمل اسمه حتى الآن[٣] ولو صح هذا التاريخ فإنه يوحى بالتقريب عن تاريخ زيارة مازن بن غضوبة للرسول ﷺ فى المدينة .

---

(١) انظر الهمدانى، المصدر السابق، ص ٥٥، السالمى، المرجع السابق ص ٣٦ .

(٢) انظر ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان، (طبع وزارة التراث العمانى ١٩٧٨م)، ص ٦ .

(٣) انظر التفاصيل: سيف البطاش، ارشاد السائل إلى معرفة الأوائل (سلطنة عمان ١٩٨٨) ص ١٣٤-١٣٥ .

وفى رواية لابن سعد يفهم منها أن أعدادا كثيرة من أهل عُمان قد أسلموا فى هذه الفترة مما دعا الرسول ﷺ إلى إرسال من يعلمهم شئون دينهم ويجمع منهم الصدقات، فتقول الرواية "أسلم أهل عمان فبعث إليهم رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمى ليعلمهم شرائع الإسلام ويصدق أموالهم "[١] .

وإذا كان من الشائع فى المصادر أن العلاء بن الحضرمى قد أوفده الرسول ﷺ إلى البحرين مبعوثاً للمنذر بن ساوى حاكمها فى (ذى القعدة سنة ٨هـ/ ٦٢٩م)[٢] أى بعد فتح مكة فإن ذكره كمبعوث إلى عمان يعطى احتمال بأنه قد جاء إليها قبل هذا التاريخ للقيام بالمهمة التى ذكرها ابن سعد ، وقبل قدوم عمرو بن العاص حاملاً رسالة الرسول ﷺ إلى عبد وجيفر ملكى عمان – كما سنوضح فى الصفحات التالية .

وأرجح أن مهمة العلاء كانت محددة فى إقليم معين أو جزء من عمان، ومما يوحى بذلك أن ابن سعد يستطرد فى روايته فيقول "فخرج وفدهم (يقصد أهل عمان) إلى رسول الله ﷺ فيهم أسد بن يبرح الطاحى[٣] فلقوا رسول الله فسألوه أن يبعث معهم رجل يقيم أمرهم .

فأرسل معهم "مخربة العبدى"[٤] .. ثم قدم بعدهم "سلمة بن عباد الأزدى" فى جماعة من قومه، فاستفسر من الرسول ﷺ عما يعبد وما يدعو

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (طبعة دار الشعب)، ج١ ، قسم ٣ ص ٨٠ .

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ١٩ ، قارن ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق طه عبد الرؤوف، القاهرة ، ١٩٧٨، ج ٤ ، ص ١٨٨ .

(٣) الطاحى : منسوب إلى طاحية بن سود بن الحجر بن عمران بن عامر ماء السماء ، بطن من الأزد (الهمدانى ، المصدر السابق ، ص ٨٤) .

(٤) يسميه خليفة بن خياط (مخرقة العبدى) ويبدو أنه تحريف ، وكان مخربة من بين أعضاء الوفد الذى قدم على الرسول (ص) فى المدينة من قبيلة عبد القيس يعلنون=

إليه، فشرح له الرسول ﷺ فأسلم "سلمة" ومن معه ودعا لهم الرسول ﷺ أن يجمع كلمتهم على الخير "[١] .

ولم يذكر ابن سعد تاريخاً محدداً لهذه الوفود العمانية التي التقت بالرسول ﷺ في المدينة، ولكن النويري الذي ينقل عنه يذكر لنا أنها قدمت على الرسول ﷺ بعد فتح مكة[٢]، وكما سنلاحظ من عرض الأحداث بعد ذلك أن هذه الوفود العمانية، ومن بعثه الرسول ﷺ إلى أهل عمان مثل العلاء ابن الحضرمي، ومخربة العبدي كان حدوثها قبل قدوم عمرو بن العاص إلى عمان حاملاً الدعوة الرسمية من النبي ﷺ إلى ملكي عُمان في ذلك الوقت، بعد أن أسلم أعداداً وفيرة من أهل عُمان ممثلة في الوفود التي بادرت بزيارة المدينة والالتقاء بالرسول ﷺ وإعلان إسلامهم بين يديه ثم العودة إلى عُمان لنشر ما اعتنقوه من الإسلام بين قبائلهم وذويهم.

=إسلامهم، وكان للعمانيين أيادي بيضاء لدى فخربه، فأراد أن يرد لهم الجميل ، فطلب من الرسول ﷺ أن يرسله إلى عمان ليقوم بالمهمة المطلوبة، فاستجاب له الرسول ﷺ (أنظر: خليفة بن خياط ، كتاب الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، (بغداد ١٩٦٧، ص ١٤٥).

(١) ابن سعد: المصدر السابق، ص ٨١.

(٢) النويري، المصدر السابق، ج ١٨، ص ١١٤- ١١٥.

الفصل الرابع : الغزوات والسرايا

١ - التعريف والأهداف .

٢ - غزوة بدر الكبرى : التمهيد والأحداث (٢هـ)

٣ - غزوة أحد . النصر والهزيمة (٣ هـ)

٤ - النتائج السلبية لغزوة أحد (٤هـ)

٥ - جلاء يهود بنى النضير (٤ هـ)

٦ - مؤامرة اليهود والمشركين : غزوة الخندق أو الأحزاب (٥هـ)

٧ - الانتصار السياسى : صلح الحديبية (٦ هـ)

٨ - غزو يهود خيبر (٧هـ)

٩ - قمة الإنتصار : فتح مكة (٨ هـ)

الفصل الرابع
الغزوات والسرايا

١- التعريف والأهداف .

اتفق جمهور المؤرخين والعلماء على تحديد مفهوم الغزوات والسرايا بأن العزوة هى ما خرج فيها الرسول ﷺ بنفسه مع المقاتلين، والسرية أو البعث ما لم يحضره بل انتدب له بعضا من أصحابه عقد لأحدهم لواء الحرب يباشرها ويقودها .

وقد اختلف كتّاب السيرة فى عدد الغزوات التى غزا فيها الرسول ﷺ بنفسه، ولكن معظم كتّاب المغازى كابن اسحق وابن سعد والواقدى وغيرهم حدد عددها بسبعة وعشرين غزوة، كما اختلف أيضا فى عدد البعوث والسرايا التى بعث بها النبى فى حياته فيرى ابن سعد فى كتاب الطبقات أنها سبعا وأربعين، ولكن ابن اسحق يحددها ثمانيا وثلاثين سرية وبعثاً ، وكيفما كان الأمر فإن المصادرالإسلامية تؤكد أن الرسول ﷺ قد بدأ فى العام الأول للهجرة فى ارسال البعوث والسرايا والخروج بنفسه فى الغزوات تحقيقا لأهداف الدولة الناشئة .

فبعد أن نظّم الرسول ﷺ شئون دولته الداخلية كان عليه أن يضم إلى المدينة المناطق المتاخمة لها ويصطنع القبائل التى تقطنها حتى يمكنه أن يحدد نطاق دولته وحتى يأمن جانب القبائل الضارية بالقرب من المدينة حتى يأمن غاراتها وفى نفس الوقت إرهابها وإشعارها بأن عهد الضعف قد ولّى، وأن سيرها فى ركاب قريش والخضوع لنفوذها لن يحميها من قوة المسلمين. والواقع أن السرايا الأولى كانت عبارة عن حملات حربية محدودة لتأمين الجبهة الداخلية ودفع الأخطار المحتملة من الخارج، واعلام أعداء الدعوة

الإسلامية بقوة الدولة الناشئة وبمقدرتها على التصدى لأعدائها بالقوى الرادعة .

وكان من أهداف تلك السرايا والغزوات أيضا التصدى لتجارة قريش ومنع قوافلها من شق أراضى الدولة الإسلامية الناشئة واشعار قريش وحلفاءها من القبائل بوجود دولة لها حدود يجب احترامها وعدم المساس بها، وإذا كانت قريش ترغب فى المرور بسلام من أراضى المسلمين فعليها الاعتراف بدينهم وبدولتهم وإطلاق حق المسلمين فى دخول مكة وزيارة البيت الحرام، وإشعار قريش بأن نشاطها التجارى فى هذا الطريق عرضة للتوقف إذا لم تستجب لمطالب الدولة الإسلامية الناشئة وتطلق الحرية للمسلمين الذين حبسوا فى مكة ولا تتعرض الدولة الاسلامية بأذى .

والواقع أن التعرض لتجارة قريش ومحاولة حرمانها من مواردها الاقتصادية والقائمة على الرحلات التجارية كان يشفى صدور المسلمين الذين هاجروا من ديارهم تاركين وراءهم الأرض والمال والمتاع التى استولى المشركون عليها ظلما وعدواناً .

وكما كان من أهم أهداف الغزوات والسرايا الدفاع عن الدولة فى المدينة وحماية مواطنيها من الأخطار الداخلية والخارجية فإن نشر الإسلام والدعوة إليه كان من الأسباب السامية وراء كل تحرك اسلامى فى ذلك الوقت، فالنبى ﷺ لم يُكلّف أن يفرض الدين بالحرب والعنف "لا اكراه فى الدين" فالإضطهاد والقوة تثير التعصب فى نفوس المضطهدين وقد قاسى المسلمون من مشركى قريش مثل ذلك، ولكن الدعوة الاسلامية كانت تعتمد على الحجة والموعظة الحسنة وتلك كانت سياسة الرسول التى تمثلت فى وصاياه لقادة السرايا والبعوث .

ومن أمثلة ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه أن النبى ﷺ عندما عقد لواء القيادة لعلىّ بن أبى طالب فى غزوة خيبر قال له علىّ: يارسول الله أقتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ "أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهد الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم " .

٢- غزوة بدر الكبرى : *التمهيد والأحداث* :

خرجت من المدينة خلال العام الأول للهجرة وسبق غزوة بدر عدداً من السرايا والبعوث والغزوات لتحقيق الأهداف السابق ذكرها، فيروى الواقدى أن النبى ﷺ قد عقد فى رمضان من السنة الأولى للهجرة لحمزة بن عبد المطلب لواءاً أبيضا وأمّره على ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترض قافلة تجارية لقريش قادمة من بلاد الشام فى طريقها إلى مكة ، وكان على القافلة أبو جهل بن هشام فى ثلاثمائة رجل والتقى الجانبات وكادا يشتبكان فى قتال إلا أن حجز بينهما "مجدى بن عمرو الجهنى" فلم يقع قتال بينهما .

وفى شهر شوال أرسل النبى ﷺ عبيدة بن الحارث فى عدد يتراوح بين ستين وثمانين رجلا لاعتراض قافلة لقريش كانت تتكون من مائتى رجل، ولكنه لم يحدث قتال أيضا فى تلك المرة إلا أن سعد بن أبى وقّاص قد رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمى به فى الأسلام .

ثم تتابعت السرايا ولكن دون اشتباك بين المشركين والمسلمين مما يتضح منه أن تلك السرايا كان الهدف منها انذار قريش وافهامها حقيقة الأوضاع الجديدة فى المدينة مع عدم الخوض فى المعارك حتى أن النبى ﷺ شكر مجدى بن عمرو عندما منع المسلمين من القتال وحجز بينهم وبين المشركين .

ونجد هذا المثال واضحا فى سرية عبد الله بن جحش الـذى أرسـله النبى ﷺ إلى "نخلة" -فى الطريق إلى مكة- ومعه عدد قليل من المهاجرين وأعطاه كتابا وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين، ثم ينظر فيه وينفذ مـا جاء به، وعند ما فتح ابن جحش الكتاب وجد فيه: "إذا نظرت فى كتابى هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلـم لنـا مـن أخبارهم" .

فسرية ابن جحش لا تتعدى كونها سرية استطلاعية الهـدف منهـا واضح فى كتاب الرسول ﷺ إلى عبد الله بن جحش، وأيضا فى الكتمان الذى أحاط بها حتى لا يتفشى خبرها بين الأعداء من اليهود والمنافقين، ولكن تلك السرية قد تميزت بأمر خطير، فرغم أن تعليمات الرسول كانت خالية من أى أمر بقتال المشركين، إلا أن ابن جحش اصطدم بقافلة تجارية لقريش يبدو أن عدد أفرادها كان صغيرا مما أغرى المسلون على التصدى لهم وقتل رجـل من قريش وأسر اثنان وعاد ابن جحش إلى المدينة ومعه الأسيرين وما غنمه من القافلة وكانت تلك الحادثة فى اليوم الأخير من رجب سنة ٢ هـ. وكمـا هو معروف فإن رجب من الأشهر التى يحرم فيها القتال بين العرب .

ولما قدمت السرية على الرسول ﷺ بالمدينة أنكر عليهم مـا فعلـوه وقال: "ما أمرتكم بقتال فى هذا الشهر الحرام" وانتهزت قريش تلك الحادثـة فى الدعاية ضد المسلمين فى أنحاء شبه الجزيرة العربية، وكان لتلك الدعاية تأثيرها على الناس حتى فى المدينة نفسها .

ويذكر ابن هشام أن رجال سرية ابن جحش قد نالهم التعنيف والزجر من أخوانهم المسلمين على ما ارتكبوه من جرم بتعديهم علـى قـريش فـى الشهر الحرام، كما استغل اليهود تلك الفرصة لإثارة الأحقاد وبـذر بـذور

الخلاف، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى رسوله ﷺ بما يرد كيد الكافرين والمنافقين فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ (البقرة/ ٢١٧) .

وهكذا تصدى الحق سبحانه وتعالى لادعاءات قريش والمنافقين، وأجاب على التساؤل الذى أثاره الجميع عن القتال فى الشهر الحرام، وأقرهم على أنه أمر خطير ولكن ليس أخطر من الصد عن سبيل الله والكفر به ومنع المسلمين عن المسجد الحرام وإخراجهم منه، وأن تلك الأمور لأكثر عند الله من قتل من قتلتم من المشركين وأن فتنة المسلم عن دينه أكبر من القتل فى الشهر الحرام ولا تزال قريش تقاتل المسلمين أملا فى ردهم عن دينهم أن استطاعوا فى الوقت الذى يأخذون على المسلمين ما فعلوه فى الشهر الحرام فإذ كان البعض يعتبر ما فعله المسلمون فى الشهر الحرام خطيئة فما القول فيما تفعله قريش من الكبائر ضد المسلمين .

وقد أعادت تلك الآية الكريمة السكينة إلى نفوس المسلمين وقطعت الألسن التى خاضت فيها بقصد الفتنة والإثارة، وفرّج الله عن أهل السرية ما كانوا فيه من كرب، وبدأ المسلمون بعد تلك الحادثة يفكرون جديا فى التصدى لقريش واتخاذ موقف أكثر حزما بعد أن أيقن النبى ﷺ أنه لا أمل فى تراجعها عن غيها والاعتراف بالأمر الواقع فى المدينة، فرأى أن يمنعها من الاعتداء على دولته باختراق أرضها فى قوافلها .

ففى رمضان من السنة الثانية للهجرة ندب الرسول جماعة من المسلمين لاعتراض قافلة لقريش وهى قادمة من الشام بقيادة أبى سفيان،

ولكن أبا سفيان بعث لقريش يخبرها باعتراض المسلمين لتجارتهم ويطلب النجدة، وغير طريقة المعتاد حتى لا يصطدم بالمسلمين ونجح فى الوصول إلى مكة دون أن تمس القافلة بسوء .

ويروى المؤرخون أن أبا سفيان عندما عاد إلى مكة سالما أرسل إلى قريش يخبرهم بعودته ويطلب منهم الرجوع وعدم التعرض للمسلمين، ولكن أبا جهل بن هشام رفض هذه الفكرة وقال "والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها.".

هكذا اعتقد أبو جهل أنه فى طريقه إلى نزهة يأكل فيها أطيب الطعام ويستمع إلى الغناء والطرب ويصيب فى نفس الوقت بعض ما يصيب من تجارة بدر الذى كان به سوق من أسواق العرب المشهورة، ولكن هذا الإعتقاد لم يمنع بنو زهرة من الرجوع إلى مكة وترك جيش قريش عملا بنصيحة حليفهم "الأخنس بن شريق" وفى نفس الوقت فإن قريشا لم تكن تجمع أمرها على الحرب حتى بعد أن علموا بقلة عدد الجيش المسلم إذا قيس بعددهم .

وكان قول عمير بن وهب "لجموع قريش بعد أن عاد من استطلاعه لقوات المسلمين وأحواله يثير الفزع ويدعو إلى التردد، فجاء فى قوله: "يامعشر قريش قد رأيت البلايا تحمل المنايا نواضيح يثرب تحمل الموت النافع قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم فانظروا رأيكم". ويبدو أن هذه المقالة قد أصابت هوى فى نفوس البعض وتحدث "حكيم بن حزام" إلى "عتبة بن ربيعة" وهو من كبراء قريش وسادتها، وطلب منه العودة بالناس على أن يتحمل دية

حليفه عمرو بن الحضرمى الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش فوافق على ذلك ولكنه طلب منه إقناع أبي جهل بذلك .

ووقف عتبة بين ربيعة خطيبا فى الجيش، فقال: "يامعشر قريش، انكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن اصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، لأنه قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم قد سالمتموه" .

وإذا نظرنا إلى ما قاله عتبة بن ربيعة يتبين لنا أن عداء قريش لمحمد ﷺ كان يشوبه الحذر، إما خوفا من مواجهة المسلمين بما عرف عنهم من الحماسة الدينية والرغبة فى الاستشهاد في سبيل الله أو خوفا على هذا النفر من قريش الذى اعتنق الإسلام ويُصاحب الرسول ويعاضده، فنحن نعلم أن معظم المهاجرين هم من قريش وأن الأسرة الواحدة بعد الهجرة أصبح عدد من أفرادها فى مكة والباقى فى المدينة وهكذا سيرفع القرشيون السيوف فى وجوه بعضهم البعض، وهذا ما أدركه عتبة بن ربيعة وربما ما فكر فيه أبو سفيان نفسه عندما أرسل إلى قريش يأمرهم بالعودة بعد أن رجعت تجارتهم سالمة .

ومما يؤكد هذا الرأى أن أبا الحكم بن هشام (أبو جهل) عندما سمع رأى عتبة بن ربيعة الذى يدعو إلى الإنسحاب إلى مكة دون صدام مع جيش المسلمين، رفض أبو جهل الفكرة تماما وصمم على المضى فى الصدام مع المسلمين واتهم عتبة بأنه يخشى هزيمة جيش المسلمين وبين صفوفهم ابنه أبو حذيفة بن عتبة، وهكذا كان على جيش المسلمين الاصطدام بجيش قوى من قريش يتراوح عدده بين التسعمائة والألف، وكان عدد من خرج مع النبى

ﷺ في هذه الغزوة سبعة عشر وثلاثمائة رجل منهم ستة وثمانون من المهاجرين والباقي من الأنصار .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن تلك هي المرة الأولى التي يشارك فيها الأنصار في التصدي لقريش والمساهمة في السرايا والغزوات ويبدو أن هذا كان تنفيذا لبيعة العقبة الثانية التي تنص على حماية النبي ﷺ والدفاع عنه في نطاق مدينتهم، حتى أن النبي ﷺ تخوف في هذا الموقف أن الأنصار قد لا يناصرونه ما داموا خارج حدود المدينة ولا سيما وأن الأمر أصبح في غاية الحرج بعد أن فوجئ النبي ﷺ بموقف جديد غير الذي قدّره.

فقد خرج الرسول ﷺ من المدينة ليواجه تجارة قريش وقافلة قليلة العدد ولكنه وجد أمامه جيشا قويا من قريش يضم كبار زعمائها وأشراف رجالها وكان على النبي ﷺ أن يستشير أصحابه ويوضح لهم جلية الأمر، فأظهر المهاجرون تأييدا مطلقا للنبي ﷺ واستعدادا لخوض لمعركة ضد قريش حتى آخر فرد فيهم .

ولكن النبي ﷺ عاد فقال: "أشيروا على أيها الناس" فقال "سعد بن معاد" زعيم الخزرج: والله لكأنك تريدنا يارسول الله "قال: أجل فقال سعد: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع الطاعة، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عيننا ، فسر بنا على بركة الله .

وهكذا اطمأن محمد ﷺ على روح أصحابه المعنوية وعلى قوة تأييدهم له فيما هو مقدم عليه وخاصة ما كان من أمر الأنصار بعد موقف زعيمهم سعد بن معاذ .

وقد التقى الرسول ﷺ بقريش عند ماء بدر فى السابع عشر من رمضان سنة ٢ هـ فنصره الله على المشركين انتصارا مؤزرا وقُتِل سبعون من رجالات قريش وسادتهم واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا، وولت قريش الأدبار بعد أن سقط هذا العدد من سادتهم بأيدى المسلمين الذين راحوا يطاردونهم ويأسرون منهم من لم يسعده الحظ بالفرار .

وكانت غزوة بدر من الأحداث الكبرى فى تاريخ الاسلام التى كانت لها نتائج فى غاية الأهمية، ففى الجانب الاسلامى كانت تمثل أول انتصار حقيقى على المشركين حطم جدار الرهبة من نفوسهم وازدادوا ثقة فى مقدرتهم الحربية وإمكانهم الانتصار على أعدائهم فى ميدان القتال بعد أن فشلوا فى استعمال سياسة الحجة والإقناع لردهم عن غيهم ، كما كانت البداية لاقامة دعائم دولة ستصبح فيما بعد من أعظم الدول تأثيرا فى التاريخ والحضارة .

وبلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم فى غزوة بدر أن أطلقوا عليها غزوة الفرقان التى فرق بها الله بين الحق والباطل، وأعز الاسلام وأذل الكفر، وسموا كل من شهد تلك الغزوة من المسلمين "بدريا" اعتزازا وافتخاراً بتلك الموقعة .

أما المشركين فقد أدركوا مدى قوة الجماعة الاسلامية الناشئة وتمسكها بدينها ومقدرتها على الدفاع عنه بحد السيف، فلم يعودوا هؤلاء المستضعفين الذين يتعرضون للاضطهاد والتشريد، بل أصبحو قوة لها شأنها

فى المنطقة، مما أثار زعماء قريش واجمعوا على معاودة الكَرّة للثأر من تلك الهزيمة ، ومحو عارها .

٣- غزوة أحد: النصر والهزيمة

يروى ابن هشام أن جماعة من أشراف قريش ممن أصيب آباؤهم وأخوانهم يوم بدر على رأسهم عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية، اجتمعوا بأبى سفيان بن حرب وغيره من تجار قريش فقالوا: "يامعشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينوا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصيب منا ففعلوا " .

وجمعت قريش جيشاً ضخماً يضم حلفائها من القبائل وأتباعها وأحابيشها حتى يقال أن هذا الجيش بلغ ثلاثة آلاف رجل على قيادته أبى سفيان صحر بن حرب الذى سار به حتى نزل بالقرب من المدينة، وعلم الرسول ﷺ بأمر تلك الحملة فاستشار أصحابه فيما يصنع، فاقترح عليه البعض بالخروج للقاء قريش خارج المدينة، واقترح البعض الآخر التحصن بالمدينة وانتظار مهاجمة العدو لها والانقضاض عليه وكان لكل رأى منهما أنصارا ومؤيدين لهم حججهم وأدلتهم على صوابه، ورغم أن النبى ﷺ كان يرى البقاء فى المدينة والتحصن بها، إلا أنه شعر أن الأغلبية من المسلمين يشتد بهم الحماس إلى الخروج لملاقاة قريش فوافق على رأيهم .

وخرج الرسول ﷺ على رأس ما يقرب من ألف رجل، وقد استغل بعض المنافقين فرصة الخلاف فى الرأى حول ملاقاة العدو داخل المدينة أو خارجها ففى الطريق انسحب "عبد الله بن أبىّ بن سلول" وهو من زعماء الأنصار بمن تحت إمرته وكان يبلغ عددهم حوالى ثلث الجيش، وبرر انسحابه بأن النبى ﷺ لم يأخذ برأيه وأنه لن يكون قتال بين الجانبين وتردد

بعض الناس، وكادوا أن يتراجعوا متأثرين بموقف عبد الله بن أبىّ، لـولا أن عصمهم إيمانهم من الانقياد للنفاق والتخاذل، ووصلت قوات المسلمين التـى كان عددها لايزيد على سبعمائة رجل إلى جبل أحد وعسكرت عنـد سـفحه المقابل للمدينة والذى ينحدر إلى الوادى حيث كانت تعسكر قوات المشركين.

وفى النصف من شوال من السنة الثالثة من الهجرة بدأت المعركـة بالمبارزة ثم اشتبك الجيشان فى قِتال عنيف، وكان الرسول ﷺ يحمى ظهـر قواته بجبل أحد بأن جعل جماعة من الرماة تقدر بحوالى خمسين رجلا على تل "أحد" وجعل على قيادتهم "عبد الله بن جبير" وأمره أن يمنع خيل قـريش من اختراق صفوف المسلمين وذلك برميها بالنبل وأن يتمسك بموقفه سواء كانت الحرب فى جانب المسلمين أو عليهم .

حمى وطيس الحرب وبرز من المسلمين فى ذلك اليوم حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وغيرهما، فأبلى المسلمون بلاء حـسناً وسـقط عدد غير قليل من المشركين صرعى سيوفهم وكانت هزيمتهم لاشك فيها إلا أن الرماة لما رأوا المشركين يولون الأدبار والمسلمين يتبعـونهم ويمزقـون شملهم ويستولون من الغنيمة الكبرى التى خلفوها ما أرادوا مما أثار مطامع الرماة. فأرادوا أن يحصلوا على نصيبهم من الغنائم، ولـم يـستمعوا الـى نصيحة قائدهم عبد الله بن جبير حين طلب منهم ألا يغادروا مـواقعهم كمـا أمرهم الرسول ﷺ بل اندفع معظمهم يتعجل الحصول على الغنيمة .

وشغل المسلمون بأمر الغنائم فانصرفوا عن ادراك الخطر المحـدق بهم، وأدرك خالد بن الوليد الذى كان يقود ميمنة جيش المشركين فـى ذلـك اليوم أهمية الموقع الذى كان يحتله الرماة المسلمون فسارع بقواته إليه واحتله وبذلك سيطر على الطريق الذى كان يحول بين جيش قريش وبين اختـراق

صفوف المسلمين والالتفاف حولهم، وفقد المسلمون بذلك أهمية موقعهم الاستراتيجي الذى يعوض قلة عددهم أمام عدد عدوهم، ولم يفطن المسلمون إلى ما فعله خالد بن الوليد إلا وهو يهاجمهم من خلفهم ويصيح بقريش الذين جمعوا فلولهم وعاودوا الهجوم، ووقع المسلمون بين الفريقين فأختل نظامهم، وصدموا بالمفاجأة، والقوا ما بأيديهم من الغنائم أملا فى انقاذ أنفسهم من الموت .

وقد إختل المسلمون وضعفت عزائمهم وذلك بسبب أن رجلا من قريش قتل مصعب بن عمير وأذاع أنه قتل محمدا وكان لهذا الخبر وقع الصاعقة على المسلمين، فأنكشفت صفوفهم، وتمكن العدو منهم حتى وصل بعضهم إلى النبى ﷺ فى موقعه وأصيب النبىّ ﷺ أصابات متعددة فى جسده، وكان خبر وفاته من أسباب نجاته فى هذا الموقف الصعب، واستبسل المسلمون فى الزود عن حياة الرسول ﷺ بعد أن أدركوا كذب ما ذكر عن مقتله .

ويبدو من استقراء المصادر أن قريشا قد صدقت كذبتها بموت الرسول ﷺ ورأت أنها بما فعلت قد مسحت عار الهزيمة فى يوم بدر فأكتفت بذلك وعولت على الإنصراف من ميدان المعركة، وصعد أبو سفيان على ربوة وصاح بالمسلمين "إن هذا اليوم، بيوم بدر واللقاء فى ميدان الحرب العام القادم" واستفسر عن موت النبى ﷺ فرد عليه عمر بن الخطاب أنه حىّ يرزق ويسمع كلامه الآن، فانصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها مكتفية بما حققته من نصر على المسلمين .

وكان النبى ﷺ يخشى أن تهاجم قريش المدينة والمسلمون فى هذه الحالة، فأرسل علىّ بن أبى طالب وقال أخرج فى أثر القوم فانظر ماذا

يصنعون، وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، ولكن قريشا لم تشأ أن تهاجم المدينة ولعلها خافت أن تفقد ما حققته من انتصار إن هى أقدمت على هذا العمل .

وعاد المسلمون إلى ميدان المعركة فجمعوا قتلاهم لدفنهم وكان من بينهم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ الذى مثلت بجثته هند بنت عتبة زوج أبى سفيان، وغضب الرسول ﷺ لهذا غضبا شديداً وقال: "ما وقفت موقفا قط أغيظ لى من هذا .. والله لئن أظهرنا الله عليهم يوما من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب" ولكن الله تعالى خفف عنه ما فى نفسه من ضيق، وأعطاه المثل الأعلى فى الصبر والعفو عند المقدرة ، فنزل قوله تعالى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ {١٢٦} وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) (سورة / النحل ١٢٦/١٢٧).

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد أصاب نفوسهم ما أصاب من الحزن والألم، لتلك الهزيمة القاسية لاسيما وقد خالف البعض أمر الرسول ﷺ، مما كان يشعرهم بغضب الله عليهم لعصيانهم نبيه وكان على النبى ﷺ التصدى لتلك الأزمة الطارئة ويحتوى نتائجها السيئة على معنويات رجاله وعلى دولته الناشئة، فبقدر ما كانت غزوة بدر دفعة قوية فى تدعيم دولة الرسول ﷺ فى المدينة ورفع الروح المعنوية للمسلمين، فإن غزوة أحد كانت على النقيض من ذلك .

فبدأ الرسول ﷺ بمعالجة الحالة النفسية للمسلمين، وأعلن عفوه عن كل من خالف أوامره خلال المعركة، وجعل مسئولية الهزيمة على الجميع

دون تحديد وأن الحرب سجال نصر وهزيمة وأثار فيهم الموعظة والـدرس لحياتهم المستقبلة، وقد أكد القرآن الكريم هذه المعانى فى قوله تعـالى: (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١٣٩} إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّـذِينَ آمَنُـواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (آل عمران / ١٣٩-١٤٠)، كما واساهم الحق فى موتاهم خير مواساة فى قوله: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (آل عمران /١٦٩) .

كما اتخذ النبى ﷺ موقفا عسكريا يدل على حنكـة ودرايـة فائقـة بمعالجة النفوس ضد الأخطار وليرد للمسلمين معنوياتهم إلى سابق عهـدها وليمحوا ما تركته الهزيمة فى نفوس أعداء المسلمين فـى داخـل المدينـة وخارجها من شماتة وتربص، فأذن مؤذن الرسول ﷺ صبيحة المعركة أنـه يطلب العدو وأن يحتشد من كان معه بالأمس من المحاربين، وقد اسـتجاب لنداء النبى ﷺ الجميع حتى من كان منهم جريحاً تصعب حركته، وخرج بهم النبى ﷺ حتى وصل إلى مكان يبعد عن المدينة بحوالى ثمانية أميال يعرف "بحمراء الأسد" وكان هذا الخروج من أسباب تراجع قريش عن التفكير فـى معاودة الكرّة ومهاجمة المدينة .

ويوضح ابن هشام هدف خروج الرسول ﷺ فى هذه الغزوة بقوله أنه خرج "مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الـذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم". كما لعب "معبد بن أبى معبد الخزاعى" دورا مُهما فى تضليل قريش مما جعلها تتراجع عن فكرة إعـادة الهجـوم علـى المدينة.

وكانت خزاعة المسلم منهم والمشرك مكمن سر الرسول فى تهامـــة، "ومعبد" يومئذ كان مشركاً، فلما مر بالرسول ﷺ فى سيره إلى حمراء الأسد. قال: "يامحمد، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك، وتمنينا أن الله عافاك منهم، وعندما قابل "معبد" جيش قريش بالروحاء وقد عزموا على العودة إلى المدينة لمواصلة القتال، قال لهم معبد: إن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فـــى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً. ودفعت هذه المقالة أبا سفيان إلى التراجع والعودة إلى مكة .

٤- النتائج السلبية لغزوة أحد :

كان على الرسول ﷺ بعد ذلك أن يواجه ما تركته غزوة أحـــد مـــن آثار لدى القبائل العربية التى بدأت تتجرأ على المسلمين وتفكر فى الاعتداء عليهم تقرباً لقريش أو استضعافاً لشأن المسلمين، فقد تحرك اليهود شـــامتين فى هزيمة المسلمين راغبين فى استرجاع مكانتهم ونفوذهم فـــى المدينـــة ، فاصطدم المسلمون فى الفترة بين غزوة أحد وغزوة الخندق فى عـــدد مـــن المعارك الجانبية التى كانت رغم صغر حجمها ضـــرورية لتـــأمين الدولـــة الإسلامية داخلياً وخارجياً.

فبعد شهرين من أُحُدْ بعث الرسول سرية بقيادة "أبى سلمة بن عبـــد الأسد المخزومى" تحوى مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار لقتال بنى أسد الذين كانوا يدبرون للهجوم على المدينة لينالوا ما يستطيعون نيله من الغنائم، ففاجأتهم السرية فى عقر دارهم، فمزقت شملهم وأوقعت بهم هزيمـــة خاطفة ألجأتهم إلى الفرار، فطاردهم المسلمين وغنموا ما معهم وعـــاد أبـــو سلمة إلى المدينة منتصراً .

كما أرسل النبى ﷺ عبد الله الجهنى إلى خالد بن سفيان زعيم هذيل، لما تأكد له عزمه على مهاجمة المسلمين، واستطاع عبد الله أن يغتال خالـــد

على حين غرة مما أصاب مشاريعه بالفشل، ولكن دبرت قبيلته الانتقام من المسلمين، فدست على الرسول جماعة من قبيلة مجاورة قدموا عليه بالمدينة وادعوا أن عندهم مسلمين يرغبون فيمن يعلمهم الاسلام ويقرأهم القرآن، فاستجاب الرسول ﷺ وبعث معهم ستة من أصحابه ، فلما بلغوا ماء لهذيل بالحجاز بناحية تعرف "بالرجيع" بين مكة والطائف، غدروا بهم وانتهى الأمر بقتل بعضهم وأسر بعضهم حيث اشترتهم قريش وقتلتهم انتقاما لقتلاها في بدر .

وقد تكررت تلك المأساة بصورة أعنف عندما جاء إلى النبى ﷺ فى شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة "أبو براء عامر بن مالك"، فدعاه الرسول إلى الاسلام، ولكنه لم يسلم، ثم قال: "يامحمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك" ولكن الرسول أعلن مخاوفه من أهل نجد، فتعهد أبو براء بحمايتهم وكان رجلا مسموع الكلمة فى قومه صادقا فى وعده .

فبعث الرسول ﷺ "المنذر بن عمرو" فى أربعين رجلا من خيار المسلمين، وسارت البعثة حتى وصلت "بئر معونة" إلى الجنوب الشرقى من المدينة بالقرب من أرض بنى عامر.

وكان الرسول ﷺ قد أرسل كتابا إلى المنذر بن عامر حمله أحد أعضاء الوفد يدعوه فيه إلى الدخول فى الإسلام والتعاون مع الوفد، فذهب حامل الكتاب ليسلمه للمنذر بن عامر ولكن ابن عامر لم ينظر فى الكتاب وقتل حامله واستصرخ عليهم بنى عامر لقتالهم فأبوا أن يجيبوه، رعاية لعهد أبى براء وجواره، فاستنفر قبائل أخرى من بنى سليم فأجابته وخرجت معه وفاجأوا جماعة المسلمين وهم يخفون سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم

ما عدا اثنين منهما. هما عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار كانا يستريحان بعيدا عن القوم، فلم ينبههما لمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على المعسكر فأدركا أن فى الأمر شئ فأسرعا ليعرفا ما حدث. فإذا القوم فى دمائهم .

وكان رأى عمرو بن أمية العودة إلى المدينة لإبلاغ رسول الله ﷺ بما حدث، لكن الأنصارى صمم على الصدام مع المشركين وقاتلهم حتى قتل ووقع عمرو بن أمية أسيرا، ويقال أن عامر بن الطفيل أطلق سراحه عندما علم أنه من مُضر، وأخذ عمرو بن أمية طريقه راجعا إلى المدينة فأقبلا عليه رجلان من بنى عامر ونزلا معه فى ظل هو فيه، وكان مع الرجلين عهد من رسول الله وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية –فسألهما حين قدما ممن أنتما فأخبراه أنهما من بنى عامر، فأمهلهما حتى إذا ناما قتلهما وهو يعتقد أنه أصاب بهما ثأره من بنى عامر بما أصابوا من أصحاب رسول الله، ولما قدم عمرو بن أمية المدينة أخبر رسول الله ﷺ بما حدث فقل له: لقد قتلت رجلين لابد من دفع ديتهما .

وقد أصابت تلك الحوادث الرسول ﷺ بحزن عميق وتجرأ المنافقون واليهود وشعروا بضعف هيبة المسلمين بعد تلك النكبات وأصبح المسلمون يواجهون موقفا فى غاية الدقة يحتاج إلى حسن تصرف وحنكة سياسية. وكان لابد من تحديد المواقف واستجلاء ما يضمره الأعداء .

٥- جلاء يهود بنى النضير :

خرج النبى ﷺ إلى يهود بنى النضير حيث يقيمون على مقربة من قباء وبصحبته عدد من كبار الصحابة بينهم أبو بكر وعمر وعلى، وطلب من بنى النضير المعاونة فى دفع دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية

خطأ أثناء عودته من بئر معونة، فأعلن اليهود موافقتهم على معاونته، ثم خلا بعضهم إلى بعض ودبروا اغتيال النبى ﷺ وكان قد جلس مع أصحابه إلى جوار حائط أحد الدور وشعر بفطرته أنهم يتهامسون ويدبرون أمراً، وشاهد أحدهم يدخل الدار التى يجلس إلى جوار حائطها فانسحب النبىّ من بين أصحابه بهدوء وعاد إلى المدينة .

ويروى ابن هاشم أن الخبر قد جاءه من السماء بما يضمره اليهود لقتله، وظن أصحابه أنه خرج لأمر ما واستبطأوه فخرجوا يبحثون عنه، فأخبرهم رجل أنه شاهده يدخل المدينة فأقبلوا عليه يستفسرون عن سبب ذلك، فأخبرهم بما أوحى إليه من أمر مؤامرة اليهود لقتله وأمر الرسول ﷺ المسلمين بالاستعداد لحربهم وزحف عليهم فى ربيع الأول سنة ٤ هـ، وتحصن اليهود بحصونهم فحاصرهم (النبى) ﷺ ستة أيام وأمر بقطع النخيل وتحريقه، فلما أيقن اليهود الهلاك سألوا النبى ﷺ الأمان، وأن يسمح لهم بالجلاء عن ديارهم ويكف عن قتالهم وأن يحملون معهم ما حملت الإبل من أموالهم دون الأسلحة، فأجابهم الرسول إلى ذلك، فخرج بعضهم إلى خيبر وبعضهم توجه إلى الشام ولكنهم أضمروا فى أنفسهم الانتقام لطردهم من ديارهم .

وحل موعد اللقاء بين المشركين والمسلمين فى شعبان من السنة الرابعة للهجرة حسب الموعد الذى ضربه أبو سفيان عندما قال "يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل" ذلك قبل انسحابه من أحد، وكان الجدب قد أصاب أراضى قريش هذا العام مما جعل أبو سفيان يتمنى لو يؤجل اللقاء مع المسلمين إلى عام آخر حتى يمكنه حشد قوات تكفى لهزيمة المسلمين وأذاع أبو سفيان أخبار كاذبة وصلت إلى المدينة عن حشود ضخمة تحشدها قريش لمقابلة المسلمين .

ولكن لم تؤثر تلك الدعاية فى المسلمين، وخرج الرسول ﷺ فى الموعد المضروب على رأس أصحابه حتى نزل بدراً ، وأقام ينتظر أبو سفيان الذى خرج بقريش وبعد مسيرة يومين تدبر الأمر وخشى عاقبة تكرار هزيمة بدر فجمع الناس وقال: "أيها الناس، إنه لايصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وأن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا فرجع الناس" .

أما المسلمون فقد أقاموا فى بدر ثمانية أيام أحسنوا استغلالها فى المتاجرة فكانت تلك الفترة موسماً من المواسم التجارية فى بدر، وربح المسلمون ربحا وفيراً وعادوا إلى المدينة ورغم عدم اشتباكهم مع قريش فى قتال إلا أن تقاعس مشركى قريش عن لقائهم وموقف أبى سفيان المتخاذل قد قوى ساعد المسلمين وعضد سلطان النبى ﷺ فى المنطقة وجعلت القبائل تدرك قوة المسلمين وظهر تردد قريش وخوفها من مواجهتهم .

٦- مؤامرة اليهود والمشركين: غزوة الخندق أو الأحزاب:

ثم كانت غزوة الخندق أو الأحزاب فى شوال سنة خمس من الهجرة، وكانت ثمرة لعدة عوامل من أهمها أن يهود بنى النضير الذين لجأوا إلى خيبر بعد طردهم من المدينة فكروا فى الانتقام من النبى ﷺ بتحريض القبائل العربية ضده وخاصة قبيلة قريش التى بينها وبين المسلمين دماء وحروب ، والتى مازالت تتزعم المعارضة ضد الإسلام فى الجزيرة العربية.

ويروى الواقدى فى كتابه المغازى أن وفدا من اليهود من بضعة عشر رجلاً وفدوا إلى مكة يدعون قريشا وأتباعها إلى حرب محمد ﷺ فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمد ﷺ وإنا لنحالفكم على عدوانه وقتاله، فرحب بهم أبو سفيان وقال: أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد ﷺ

واختير وفد من قريش بزعامة أبى سفيان دخل مع وفد اليهود إلى الكعبة وتعاهد الفريقان على توحيد الكلمة ضد محمد ﷺ حتى آخر رجل منهم .

وهنا يحلو لمشركي قريش أن يسألوا حلفاءهم من اليهود المنافقين أديننا خيرٌ أم دين محمد ﷺ ؟ ويتجلى خراب النفس وضيعة القيم والحقد الأعمى لدى اليهود، فيردون على سؤالهم بقول باطل فقالوا: أنتم أولى بالحق منه أنكم لتعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية وتنحرون البدن، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم، فأنتم أولى بالحق منه[1]، فأنزل الله تعالى فى ذلك: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً) (النساء /٥١).

وخرج الوفد اليهودى من عند قريش إلى قبائل غطفان وبنى مرة وسليم وبنى سعد وبنى أسد الذين شعروا أن لهم ثأراً لدى المسلمين، وكان هدفهم إحكام الحصار حول محمد ﷺ وتجميع أكبر حشد من العرب لقتاله، ويبدو أن قريشا كانت مترددة فى الوفاء بوعدها وتخشى التورط فى معركة لا تعرف مداها حتى أن صفوان بن أمية حذر قريشا من مغبة تقاعسها، وذكّر قومه بنتيجة تراجعهم فى بدر الثانية وضياع هيبتهم لدى العرب .

وأخذت قريش فى الجهاز والاستعداد وسيرت فى العرب تدعوهم لنصرتها، وفى الموعد المتفق عليه خرجت الأحزاب المتحالفة، وعلى رأسها قريش ومن تبعها من أحابيشها فى أربعة آلاف رجل بقيادة أبى سفيان بن حرب ومعهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير، وجاءت سليم فى سبعمائة رجل يقودهم سفيان بن عبد شمس، وخرجت بنو أسد وقائدها طلحة بن خويلد الأسدى وخرجت بنو فزارة عن بكرة أبيهم وكان عددهم ألفا يقودهم عتيبة بن

---

(١) أنظر : تاريخ الطبرى ، ح ٢ ، ص ٥٦٥ .

حصن، وخرجت أشجع وقائدها مسعود بن رُخَيلة فى أربعمائة رجل، وخرج الحارث ابن عوف يقود قومه بنى مرة وهم أربعمائة رجل، فبلغ عدة جيش الأحزاب حوالى عشرة آلاف رجل وقد تولى القيادة العامة أبو سفيان صخر بن حرب .

ووصلت أنباء هذا التحرك العسكرى الضخم إلى المدينة عن طريق نفرٌ من خزاعة خرجوا إلى المدينة وأخبروا رسول الله ﷺ باتفاق قريش وأحزابها، فاجتمع الرسول ﷺ على الفور بكبار صحابته وأخبرهم بخبر عدوهم، وبث فى نفوسهم الطمأنينة حتى لا يهابون هذا العدد الكبير ووعدهم بالنصر أن هم صبروا واتقوا وتمسكوا بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ .

وانتهت المشاورات بالموافقة على رأى سليمان الفارسى بحفر خندق[١] حول المناطق الضعيفة من المدينة التى يمكن للعدو اختراقها وهى الجهة الشمالية والغربية، وأسرع المسلمون جميعاً فى حفر الخندق وشاركهم الرسول ﷺ بنفسه. وقدمت لهم بنو قريظة أعدادا كثيرة من آلات الحفر وكانوا آنذاك على علاقة طيبة مع المسلمين ورصّت الحجارة الناتجة عن الحفر، أمام الخندق لتكون أداة لقذف العدو.

كما حصّن المسلمون دور المدينة وجدرانها المقابلة للعدو فيذكر الواقدى أن المسلمين شبّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فأصبحت كالحصن ووضع النساء والأطفال داخل الدور المحصنة، وكان جيش المسلمين فى ذلك الوقت لا يتعدى ثلاثة آلاف.

وفوجئت قوات الأحزاب بتحصن المسلمين داخل المدينة، وبالخندق الذى يحول بين الجانبين وكان الأمل معقودا أن يصطدم هذا الجيش الكبير

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى ، ج ٢ ، ص ٥٦٦ – ٥٧٠ .

بجيوش المسلمين القليلة فى أرض مكشوفة مثل الحال فى موقعة أحد وكان من الصعب على المشركين اختراق الخندق فكان القتال لا يتعدى تبادل القذف بالنبال والحجارة .

والواقع أن جيوش المشركين لم تكن مستعدة لإقامة طويلة ولحصار قد يدوم شهورا لاسيما أن المسلمين متحصنين داخل مدينتهم قد حصدوا غلاتهم قبل المعركة، ويتعمون بما تمدهم به بنو قريظة من الميرة فى الوقت الذى يعانى فيه جيش الأحزاب من قسوة الشتاء وقلة العلف والميرة لرجالهم ودوابهم حتى فكرت بعض الأحزاب فى الانسحاب من ميدان المعركة، ولكن اليهود أصحاب فكرة الحرب رأوا إنقاذ الموقف، وكانت الورقة الأخيرة فى يدهم هى ضرب المدينة من الداخل عن طريق تأليب يهود بنى قريظة ضد المسلمين .

وكان بنو قريظة حتى ذلك الوقت على عهدهم مع النبى ﷺ كما نصت الصحيفة، وتزعم القيام بالوقيعة بين المسلمين وبين بنى قريظة أحد زعماء يهود بنى النضير هو "حيى بن أخطب" الذى تسلل إلى المدينة للقاء "كعب بن أسد" زعيم بني قريظة وصاحب عقدها وعهدها الذى توجس من قدوم حيى وكرهت بنو قريظة دخوله ديارهم، وأدركت مغبة نقض العهد مع المسلمين فقد ينالهم ما نال بنى النضير من قبل حتى أن كعب بن أسد طلب من حيي أن يرجع لأنه يقوده وقومه إلى الهلاك ولكن حيي مازال يلح على كعب ويزين له الأمر ويمحو عنه المخاوف ويؤكد له النصر المقترب للأحزاب حتى نقض عهده للمسلمين واستجاب له"[١] .

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى ، ج ٢ ، ص ٥٧١ .

وصل خبر نقض يهود بنى قريظة العهد إلى النبى وهو فى خيمته أمام الخندق، فأرسل الزبير بن العوام ليتأكد من الأمر، فعاد يؤكد له أنهم يصلحون حصونهم ويجمعون ماشيتهم، ورأى الرسول ﷺ أن يبعث إلى بنى قريظة زعيمين من الأوس والخزرج لعلهما ينجحان فى ردهم عن غيهم، فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج معهما أسيد بن حضير، وأمرهم ألا يعلنوا أمر نقض بنى قريظة العهد أمام المسلمين حتى لا يفت فى عضدهم، وقد تأكد للوفد حقيقة موقف يهود بنى قريظة حتى أن كعب عندما ذكره أحدهم بالعهد الذى بينه وبين المسلمين قال : قطعته كما قطعت هذا القبال ، لقبال نعله .

وعاد الوفد إلى الرسول ﷺ يؤكد خيانة بنى قريظة، وانتهى الخبر إلى المسلمين فاشتد الخوف وعظم البلاء، وخيف على الذرارى والنساء وكانوا كما قال الله تعالى: (إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) (الأحزاب /١٠)، وفى تلك الظروف القاسية يطل المنافقون من جحورهم كالأفاعى، وكان لابد من الصمود أمام الخطر الداهم من خارج المدينة والخطر المقيم فى الداخل، وأراد الرسول ﷺ أن يكسب الوقت ويضعف تكتل الأحزاب، ففاوض قبيلة غطفان فى الانسحاب من المعركة ضد المسلمين، وترك تجمع الأحزاب حول المدينة فى مقابل حصولها على ثلث تمر المدينة.

وكان اليهود قد وعدوا غطفان بتمر خيبر لمدة سنة، ورغم أن هذه المفاوضات لم تثمر لأن زعماء الأنصار وعلى رأسهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رفضوا أن يسلموا لغطفان بمثل هذا، واستجاب رسول الله لهم، إلا أن هذه المفاوضات أوضحت الثغرات فى تجمع المشركين وأنهم غير جادين فى تحالفهم وأن اتحادهم يمكن ضربه بصمود المسلمين وتماسكهم .

وقد استغل الرسول ﷺ "نعيم بن مسعود" الذى أعلن اسلامه وكان يتنقل بين صفوف المشركين ولم يعلموا بأمره وكان على علاقة طيبة بقريش واليهود، فقال له الرسول ﷺ "خذّل عنا، فإن الحرب خُدعة" وتمكن نعيم من إيهام قريش بأن بنى قريظة قد عادت إلى عهدها مع محمد ﷺ وأنها ستطلب منهم رهائن لتقديمها إلى محمد ﷺ تأكيداً على صدق نواياهم، وفى نفس الوقت حذّر بنى قريظة من نتائج هزيمة الأحزاب وانسحابها وتركهم تحت رحمة المسلمين وأنه لابد من حصولهم على رهائن حتى لا يغرر بهم ، ويُتركون لمواجهة جيش المسلمين بمفردهم.

ونجحت الخدعة وطلبت قريش من قريظة المشاركة فى القتال فاشترطت الأخيرة لذلك تقديم الرهائن حتى لا تُترك وحيدة في مواجهة المسلمين في حال انسحاب الأحزاب مما أكد كلام نعيم[١]، فعزم المشركون وحلفاؤهم على الرحيل من حول الخندق وقد أدت الطبيعة دورا مهما فى تعجيلهم بالفرار من ميدان المعركة إذ هبت على المنطقة رياح عنيفة مصحوبة برعد ومطر شديد أدت إلى اضطراب أحوال جيش الأحزاب وهدم خيامهم وفرار دوابهم وسارع المشركون إلى الفرار. تاركين خلفهم معظم أحمالهم ومتاعهم يجرون أذيال الخزى، وأصبح المسلمون وقد خلى معسكر العدو وتفرقت الأحزاب وكفى الله المسلمين شر القتال وعاد الرسول ﷺ من مقر قيادته فدخل المدينة عند الظهر .

وتروى المصادر أن جبريلا قد أوحى إليه بألا يضع السلاح حتى يسير إلى بنى قريظة، فأمر الرسول ﷺ مؤذناً فأذن فى الناس "من كان سامعا مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة" فتعانق المسلمون وخرج

(١) انظر : التفاصيل: تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٥٧٨ وما بعدها .

على بن أبى طالب بالراية وقد تشوق الجميع إلى الانتقام من أبشع صور الخيانة والغدر، وبعد حصار دام خمساً وعشرين يوماً أيقن اليهود الهلاك، فنزل اليهود على حكم الرسول ﷺ وسألوا حلفاءهم الأوس، أن يتوسطوا لهم لدى الرسول ﷺ على أن يكون أمرهم مثل بنى النضير. الجلاء عن المدينة، فترك الرسول ﷺ أمرهم إلى سعد بن معاذ زعيم الأوس الذى حكم بأن يقتل رجالهم وتسبى الذرارى والنساء وتقسم الأموال. [١]

وبالقضاء على بنى قريظة أصبحت المدينة خالية للمسلمين لايخشون خيانة من الداخل أو طعنة فى الظهر مما جعل الرسول ﷺ يتفرغ لنشر الإسلام فى الخارج كما أن غزوة الخندق كانت نهاية محاولات قريش لغزو المسلمين بعد أن أيقنوا أنهم لا قبل لهم بهم بعد أن فرت حشودم المتحالفة من ميدان المعركة دون تحقيق أهدافها .

٧- الإنتصار السياسى : صلح الحديبية (٦ هـ) :

خرج الرسول ﷺ من المدينة فى شهر ذى القعدة سنة ٦ هـ[٢] قاصداً مكة لزيارة بيت الله الحرام تنفيذا لرؤية رآها فى النوم أنه دخل البيت الحرام وحلق رأسه وأخذ مفتاح الكعبة، وعرّف مع المعرفين، فاستنفر أصحابه إلى العمرة، واستنفر من حوله من الأعراب أن يخرجوا معه تحسبا لما يمكن أن يحدث من اعتراض قريش له وصده عن البيت ، ولكن الأعراب تثاقلوا خشية الدخول فى حرب مع قريش واعتلوا بشغلهم بأموالهم وأبنائهم وذراريهم وهم بنو بكر ومزينة وجهينة.

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى، ج ٤ ، ص ٥٨١ وما بعدها .

(٢) انظر : تاريخ الطبرى، ج ٢ ، ص ٦٢٠ .

فسار الرسول بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ليس معهم من السلاح إلا السيوف فى القرب، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه ما جاء لحرب وإنما هدفه زيارة البيت والطواف به .

وحتى يأمن الرسول على من معه من غدر المشركين أرسل بشر بن سفيان عينا له ليعلم له من أخبار قريش، وما تقدم عليه عندما تعلم بتحرك المسلمين فى اتجاه مكة، ولما بلغ قريش خروج رسول الله ﷺ إلى مكة راعهم ذلك واجتمعوا له وتشاوروا فيما بينهم وقالوا: يريد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً، فتسمع به العرب وقد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا.

وأجمع القرشيون أمرهم على مهاجمة محمد ﷺ وأصحابه ومنعه بالقوة من دخول مكة وأرسلوا لهذا الغرض فرسانا على قيادتهم خالد بن الوليد لرصد المسلمين والتصدى لهم .

ولما وصل المسلمون إلى عسفان (موضع بين مكة والمدينة) لقيهم بشر بن سفيان الذى دخل مكة مستخفيا وعلم ما كان من أمر قريش وأخبر الرسول ﷺ بخروج جيش بقيادة خالد بن الوليد وقد عسكر هذا الجيش فى الطريق إلى مكة وقد وضع خالد العيون على الجبال لرصد تحركات المسلمين. فقال رسول الله ﷺ "يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وأن اظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فو الله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى الموت"[١] .

---

(١) تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٦٢٣، سيرة ابن هشام ، ج٢ ، ص ٢٢٦ .

وطلب الرسول ﷺ من رجاله أن يتقدم أحدهم ويسلك بهم طريقاً غير الطريق الذى ترصده قريش حتى لا يصطدم معهم فى قتال ، وكان الرسول ﷺ على ما يبدو يرى إلى إحراج قريش أمام العرب جميعا إذا هى أصرت على قتاله فى الشهر الحرام ومنعته من زيارة البيت الحرام وتمكن المسلمون من أن يسلكوا طريقا وعراً وخرجوا منه بعد مشقة أن يجنبوا قوات المشركين وأن يحافظوا على اتجاههم إلى مكة، ولما علم خالد بن الوليد أن المسلمين قد سلكوا طريقا آخر غير الذى يراقبونه انسحب بفرسانه مسرعا إلى مكة .

وتروى المصادر التاريخية أن الرسول ﷺ عندما وصل إلى الحديبية (موضع يبعد عن مكة حوالى تسعة أميال) بركت ناقته، فقال من حوله: خلأت الناقة ، قال : ما خلأت ولا هو لها بعادة ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها. وفى الحديبية بدأت الوفود من قريش ترد على الرسول ﷺ[١] .

وكان أول هذه الوفود من خزاعة بقيادة بديل بن ورقاء الخزاعى وكانت خزاعة على علاقة طيبة بالرسول ﷺ -كما ذكرنا- وأخبر الرسول ﷺ وفد خزاعة أنه لم يأت يريد حرباً إنما جاء زائراً للبيت . ومعظما لحرمته وأن قريش قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددناهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، فإن أبوا فسأقاتلهم على أمرى حتى تنفرد سالفتى .[٢]

---

(١) تاريخ الطبرى، ج ٢ ، ص ٦٢٤ .

(٢) تاريخ الطبرى، ج ٢ ، ص ٦٢٦ .

ويتضح من أقوال الرسول ﷺ أنه يطلب من قريش أن تقف على الحياد وأن تتركه يدعوا القبائل إلى الإسلام دون تدخل من جانبها، فإذا دانت له العرب فعلى قريش أن تقرر أما الدخول فى الإسلام أو الحرب. ونقل بديل ابن ورقاء الخزاعى اقتراح الرسول ﷺ إلى زعماء قريش لكنهم رفضوا ذلك وقالوا: وإن كان لايريد قتالا فلن يدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تتحدث العرب عنا بذلك. ولكن قريش لم تتخذ موقفا حاسماً ضد المسلمين ولعلها كانت مترددة فى ذلك واستمرت فى ارسال الرسل تباعا وكان رد الرسول ﷺ عليهم لا يختلف عما قاله لبديل بن ورقاء ، وكان الرسول ﷺ خلال ذلك يرمى إلى إظهار رغبته فى زيارة البيت دون التعرض لقريش بقتال ، وإحراجها بين العرب بوجه عام وأحلافها بوجه خاص .

ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ عندما رأى الحليس بن علقمة سيد الأحابيش قادم إليه مبعوثا من قريش قال: أن هذا من قوم يتعبدون، فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه. فلما رأى الحليس الهدى رجع إلى قريش، ولم يصل لرسول الله ﷺ اعظاما لما رأى، وأخبر قريش بما رأى، فقالوا له: إنما أنت أعرابى لا علم لك، فقال : يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصَد عن بيت الله من جاء معظما له، والذى نفس الحليس بيده لتخلين بين محمد ﷺ وبين ما جاء له، أو لانفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فطلب منه القرشيون أن يكف عنهم حتى يتدبروا أمرهم[١] .

ولعل أكثر الرسل صراحة فى مواجهة قريش كان عروة بن مسعود الثقفى الذى قال لقريش عند عودته من لقاء محمد ﷺ والمسلمين: يا معشر قريش أننى قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه ،

---

(١) أنظر التفاصيل : تاريخ الطبرى، ج ٢ ، ص ٦٢٨ .

وإني والله ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا، فروا رأيكم ، وقد دفع عروة إلى هذا القول ما وجده من شدة حب المسلمين لرسول الله ﷺ والتفافهم حوله، يسرعون في تلبية أوامره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم ، ولا يحدون النظر إليه تعظيما له .

ورأى رسول الله ﷺ أن يرسل أحد رجاله إلى مكة ليوضح لأشراف قريش أهداف المسلمين من مجيئهم إلى مكة، وليعلم موقفهم من هذا الأمر، ودعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب للقيام بهذه المهمة، ولكن عمر بن الخطاب أعلن للرسول عن خشيته من أن تتعرض له قريش بسوء وليس بمكة من بني عدي (قبيلة عمر) من يمنعه، ولا سيما وأن قريشا تدرك مدى عداوة عمر لها وغلظته عليها، واقترح عمر أن يبعث رسول الله ﷺ بعثمان ابن عفان لأن عصبيته في مكة قوية .

ويروي ابن اسحاق أن الرسول ﷺ دعا عثمان للقيام بهذه المهمة، فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فحمله على دابته وأجاره، وانطلق عثمان حتى التقى بأشراف قريش وعلى رأسهم أبي سفيان صخر ابن حرب فبلّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقال لهم عثمان:

بعثني رسول الله ﷺ اليكم، يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، تدخلون في الدين كافة، فإن الله مظهر دينه ولو كره الكافرون، وأخرى تكفون، ويلي هذا منه غيركم ، فإن ظفروا بمحمد ﷺ ذلك ما أردتم، وأن ظفر محمد ﷺ كنتم بالخيار، أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس، أو تقاتلون وأنتم وافرون، وأخرى، أن رسول الله يخبركم بأنه لم يأت لقتال أحد، إنما جاء معتمراً معه الهدى عليه القلائد ينحره وينصرف .

وواضح من رواية الواقدى الأخيرة أن رسول الله ﷺ عرض على قريش عن طريق عثمان ثلاث نقاط أولها دخول قريش فى الإسلام وثانيهما وقوفها على الحياد، وثالثها أن تدع المسلمين يقومون بأداء العمرة، ولكن قريش رفضت الاستجابة إلى أى أمر من هذه الأمور، ويبدو أن عثمان قد بذل مجهودا كبيرا فى سبيل إقناع قريش للاستجابة إلى أحد هذه النقاط حتى أن الواقدى يذكر أن عثمان بن عفان أتى أشراف مكة رجلا رجلا ولكنهم كانوا يردون عليه : أن محمداً ﷺ لا يدخلها علينا أبدا .

ويبدو أن عثمان قد أُحسن استقباله رغم هذا، وعرض عليه أهل مكة أنَ يطوف بالبيت إن شاء ولكنه رفض حتى يطوف به رسول الله ﷺ وطال مقام عثمان بمكة ثلاثة أيام ، ووصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قُتِل فقال الرسول ﷺ : لانبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة ، فبايعوه بيعة الرضوان (بيعة الشجرة) على أن لا يفروا ويصمدوا فى قتال قريش .

ثم وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ وهو بالحديبية أن ما جاء من أمر عثمان باطل، ولكن أخبار تأهب المسلمين للقتال والتفافهم حول النبى ﷺ ومبايعته قد أصاب قريشاً بالفزع، وأدركوا خطورة مهاجمة المسلمين لمكة إذا هم تمادوا فى موقفهم المتشدد واتفق رأى قريش على موادعة المسلمين والعمل على مصالحتهم حسما للنزاع، ولما أجمعت قريش أمرها على الصلح والموادعة، أرسلت وفدا من رجالها على رأسه "سهيل بن عمرو" وأعطوه تعليمات بما يمكن أن يتفاوض حوله مع المسلمين، وقالو له: "أئت محمدا ﷺ فصالحه، لكن فى صلحك لا يدخل فى عامه هذا ، فو الله لا يتحدث العرب أنه دخل علينا عنوة " .

وأتى سهيل بن عمرو إلى الرسول ﷺ فلما رآه الرسول ﷺ قال: أراد القوم الصلح حين بعثوا الرجل ، ودارت المفاوضات بين الجانبين حول شروط الصلح قبل كتابة نصوصه وطالت المناقشات وتعالت الأصوات وانخفضت وانتهى الأمر بالاتفاق ولم يبق إلا الكتابة والتدوين، ويبدو أن بعض المسلمين قد أصابهم الشك فى هذا الاتفاق، وشعروا بأنهم يعطون للمشركين أكثر مما يأخذون ويتنازلون عن الكثير من حقوقهم، وكان على رأس المعارضين عمر بن الخطاب .

ويروى الواقدى فى كتابه المغازى أنه لما اصطلح الطرفان فلم يبق إلا الكتاب، وثب عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ألسنا بالمسلمين؟ فقال رسول الله ﷺ بلى . قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال رسول الله ﷺ: "أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعنى "ورغم ما فى عبارات رسول الله ﷺ من وضوح بأن ما يفعله فى هذا الصلح هو أمر من السماء، إلا أن عمر كرر نفس العبارات تقريبا على أبى بكر الصديق الذى طلب منه أن يتبع أوامر الرسول دون مناقشة لأنه ينفذ أوامر الله سبحانه وتعالى ، لكن عمرا استمر يتسائل علام نعطى الدنية فى ديننا ؟ .

ويبدو أن هذا النفر المعارض للصلح من المسلمين كان على اعتقاد جازم بأن الفتح وشيك وان لا يداخالهم شك فى دخول مكة ظافرين لرؤيا رسول الله ﷺ أنه حلق رأسه وأنه دخل البيت ، فأخذ مفتاح الكعبة وعرّف مع المعرفين. ولما تساءل عمر بعض من أصحاب النبى ﷺ عن حقيقة الرؤيا هذه، رد عليهم رسول الله ﷺ : قلت لك فى سفركم هذا؟ قال عمر: لا، فأخذ لرسول يذكرهم بمواقف كثيرة أيده فيها الله سبحانه تعالى وعلى التحديد يوم أحد ويوم الأحزاب .

ولعل ما أثار حفيظة بعض المسلمين وزاد من تخوفهم من شـروط الصلح مع المشركين هذا الموقف القاسى الذى تعرض له أحد المسلمين على مرأى ومسمع منهم ، ويروى ابن هشام ، هذه الحادثة بقوله: "بينما رسـول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو : إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد ، قد أنفلت إلى رسول الله ﷺ هارباً من مكة.

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، واخذ بتلابيبه، ثم قال يا محمد، قد لُجت (تمت) القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هـذا، قـال: صدقت، فجعل سهيل يجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بـأعلى صوته: أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟ فزاد ذلك غضب الناس إلـى مابهم ، فقال رسول لله ﷺ يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لـك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجاً .

"إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونـا عهد الله، لا غدر بهم، فوثب عمر بن الخطاب مع أبى جندل يمشى إلى جنبه ويقول: أصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحـدهم دم كلـب، ويدنى قائم سيفه منه وقال عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب بـه أبـاه فضن الرجل بأبيه ونفذت القضية".

وبدأت مرحلة كتابة نصوص صلح الحديبية ، وطلب سهيل بن عمر أن يكتب نصوص الإتفاق عثمان بن عفان أو على بن أبى طالـب ، فـأمر النبى ﷺ على بن أبى طالب بالكتابة، وقـال رسـول الله: اكتـب بـسم الله الرحمن الرحيم، فقل سهيل: لا أعرف الرحمن أكتب كما نكتب باسمك اللهم، فضاق المسلمين من ذلك، ولكن الرسول ﷺ أمر عليا أن يكتب باسمك اللهم هذا ما اصطلح عليه رسول الله، فبادر سهيل معترضا، لو أعلم أنك رسـول الله ما خالفتك واتبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبدالله ؟ .

فضج المسلمون ضجة شديدة وارتفعت الأصوات مصرة على كتابة "محمد رسول الله" حتى أن أسيد بن حضير وسعد بن عبادة أخذا بيد الكاتب فأمسكاها وقالا: لا تكتب إلا محمد رسول الله ، وإلا فالسيف بيننا . ولكن رسول الله كان يخفضهم ويميء بيده إليهم أن اسكتوا وأمر عليا أن يكتب : محمد بن عبد الله وكانت نصوص الصلح كما أوردها الواقدى كما يلى:

"باسمك اللهم ، هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمر اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه لا اسلال ولا أغلال وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه من حب أن يدخل فى عهد محمد وعقده فعل ، وأنه من أحب أن يدخل فى عهد قريش وعقدها فعل وأنه من أتى محمدا منهم بغير اذن وليه رده إليه، وأنه من أتى قريشا من أصحاب محمد لم ترده ، وأن محمدا يرجع عنا عامة هذا بأصحابه ، ويدخل علينا قابل فى أصحابه فيقيم ثلاثا ، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف فى القرب " .

واحتفظ كل فريق بنسخة من كتاب الصلح بعد أن وقع عليها زعماء المسلمين وزعماء قريش، وكان من الموقعين على هذا الاتفاق عمر بن الخطاب مما يوضح أنه رغم معارضته ما كان ليخالف أمر الرسول ﷺ أو يتمسك برأيه دون أغلبية الصحابة. وبعد انتهاء كتابة الصلح أعلنت خزاعة عن دخولها فى عهد محمد ﷺ وعقده ، وأعلن بنو بكر الدخول مع قريش فى عهدها وعقدها .

ويذكر الرواة أن الرسول ﷺ بعد أن فرغ من عقد الصلح قال لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا ، ويبدو أنهم كانوا مأخوذين من شروط الصلح فلم يقم منهم أحد، فانصرف الرسول ﷺ فدخل على زوجته أم سلمة

شديد الغضب وذكر لها ما لقى من الناس، فقالت له: أخرج، ثم لا تكلم أحدا منهم حتى تنحر وتدعو حالقك، ففعل فاقتدى به المسلمون ونحروا وحلقا.

عاد الرسول ﷺ بالمسلمين إلى المدينة دون دخول مكة ودون الصدام مع المشركين ، حاملا شروط الصلح الذى اتفق عليه الجانبان وكان رسول الله ﷺ ملزماً بشروط الصلح كعهده فى احترام المواثيق ، ولما عاد إلى المدينة أتاه أبو بصير – عتبة بن أسيد لاجئا بإسلامه من مكة، فكتب بعض القريشيين فى رده كتابا وبعثوا به رجلا من بنى عامر ومعه خادم له يهديه الطريق ، فقدما على رسول الله بالكتاب ، وكان يحوى طلبا من قريش بأن يلتزم الرسول ﷺ بنصوص الصلح وأن يبعث اليهم أبا بصير، قال رسول الله لأبى بصير: أنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت من عهد ولا يصح فى ديننا الغدر، وأن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجاً .

وأمره الرسول ﷺ أن ينطلق عائدا إلى مكة فاستجاب أبو بصير وفى الطريق إلى مكة تمكن أبو بصير من قتل الرجل من بنى عامر وانطلق إلى الرسول ﷺ متوشحا بالسيف، وقال: يارسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى، فقال له الرسول ﷺ أذهب حيث شئت .

ويقال أن أبا بصير خرج من المدينة ونزل فى موضع على ساحل البحر الأحمر واجتمع إليه هناك كثير من المسلمين الذين فروا من مكة ولم ينضموا إلى المدينة طبقا لشروط الصلح وكانوا مصدر خطر شديد على تجارة قريش فكانوا يترصدون قوافله ورجالها، فلا يقع فى أيديهم قرشى إلا قتلوه، ولا تمر بهم قافلة إلى أخذوها حتى ضجت قريش من شدة هؤلاء النفر من المسلمين وكتبت إلى رسول الله ﷺ تتوسل إليه أن يأوى تلك الجماعة من المسلمين فلا حاجة لقريش بهم، فآواهم رسول الله وسمح لهم بدخول المدينة.

والواقع أن صلح الحديبية رغم اعتراض بعض المسلمين على بعض بنوده وخاصة فيما يتعلق بحق قريش فى استرداد من يلجأ إلى المسلمين من مسلمى قريش باعتباره أمرا لا يليق بهم ، إلا أن هذا الصلح كما وصفه القرآن كان فتحا مبينا ، فقد أعطى المسلمون الحق فى دخول مكة فى العام التالى، وإخلائها من قريش مما حقق هدف المسلمين فى تلك المرحلة وهو اعتراف قريش بهم وبأحقيتهم فى ممارسة شعائرهم الدينية فى مكة نفسها معقل الوثنية.

كما أنه بهذا الصلح أمن المسلمون شرّ قريش وصارت لهم الحرية فى الدعوة إلى الإسلام ونشره فى الجزيرة العربية ودخل الإسلام أعداداً كثيرة من القبائل العربية حتى وصلت وفود من بلاد العرب الجنوبية إلى الرسول ﷺ بالمدينة. وفى هذه الفترة جاء إلى المدينة عدد من الوفود من أهل عُمَان الذين أعلنوا إسلامهم أمام الرسول وطلبوا منه أن يرسل معهم إلى عُمان من يعلمهم الإسلام[١]. بل أن زعماء قريش من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص أدركوا حقيقة الدعوة الإسلامية وعقدوا النية على دخول الإسلام وساروا إلى المدينة حيث بايعوا الرسول ﷺ وكانوا قوة للإسلام والمسلمين .

٨- غزوة يهود خيبر (محرم سنة ٧هـ) :

صادف المسلمون عداء قوتين رئيسيتين فى شبه الجزيرة العربية القوة الأولى: تمثلها قريش بأحلافها ومكانتها الاقتصادية والدينية لدى العرب، والقوة الثانية فكانت تمثلها اليهود الذين ناصبوا المسلمين العداء وخاصة منذ دخل النبى ﷺ إلى المدينة فقد رأوا فى الإسلام منافساً جديداً يكاد يقضى

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج١، ص ٨٠- ٨١، النويرى، نهاية الأرب، ج١٨، ص ١١٥.

على نفوذهم وينتزع منهم ولاء الزعامة الدينية التى كانوا يتنازعونها مع النصارى .

وكان صلح الحديبية قد وضع قريشا فى مكانها وحدد خطرها على المسلمين، ولكن الخطر الآخر الممثل فى اليهود كان لايزال قائما ، وقد نجح اليهود فى أحد مراحل تآمرهم ضد المسلمين أن يجمعوا العرب واليهود ضد الإسلام فى غزوة الأحزاب أو الخندق، ولكن الله نصر دينه وحفظ الإسلام وظل اليهود على كراهيتهم للإسلام والمسلمين وكان مركز التآمر فى تلك المرحلة هم يهود خيبر ومن لجأ إليهم من يهود بنى النضير وغيرهم، ومن الأحلاف القبلية التى ترتبط معهم بروابط الدم . وكان على الرسول ﷺ أن يقضى على هذا الخطر نهائيا حتى يستطيع أن يتفرغ لمهمته الأساسية، وهى نشر الإسلام فى جميع أقطار الأرض .

ويروى المؤرخون أن الرسول ما كاد يعود من الحديبية ولم يمض على بقائه فى المدينة حوالى شهر حتى خرج فى المحرم من السنة السابعة للهجرة على رأس ألف وستمائة من المسلمين قاصداً خيبر، ونازل حصون اليهود حصنا حصناً حتى تمكن من ايقاع الهزيمة باليهود ثم استجاب إلى دعوتهم إلى الصلح رغبة منه فى حقن الدماء، وكان الصلح ينص على أن يبقى اليهود فى مكانهم يمارسون نشاطهم الاقتصادى على أن يدفعوا نصف ما يخرج من أرضهم للمسلمين، وإذا شاء المسلمون أخرجوهم، ثم توجه النبى ﷺ إلى باقى أحلاف اليهود فى وادى القرى ثم عاد إلى المدينة بعد أن صالح أهل فدك على مثل صلح خيبر .

وبالقضاء على سلطان اليهود أصبحت الأمور تسير فى صالح المسلمين، وأصبحت مكة بعد غزوة خيبر تقف وحيدة واطمأن النبى ﷺ إلى

قوة المسلمين وإلى أن الأوضاع فى جزيرة العرب قد تحولت إلى صالحه ، وانفتح أمامه الطريق ليعمل فى ثقة واطمئنان لتوسيع دائرة دعوته والخروج بها إلى ما قدر لها من انتشار عالمى ، من أجل ذلك أرسل النبى رسله إلـــى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الدخول فى دين الإسلام .

فأرسل إلى النجاشى ملك الحبشة وإلى ملك اليمامة والبحرين وعُمان والحارث الحُميرى مَلك اليمن والحارث الغسانى على حـــدود الـــشام وإلـــى هرقل قيصر الروم والمقوقس حاكم مصر[١]. ورغم اختلاف تقبـــل هـــؤلاء الملوك لدعوة الإسلام إلا أن تلك الرسائل دلالة على أن الرســـول ﷺ كـــان يرسم لأصحابه الخطوات التالية وأهدافهم المقبلة فى نشر الإسلام فى جميـــع أنحاء العالم .

كان من بين هؤلاء الرسل الحارث بن عمير الأزدى وكان رســـولا إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغسانى، فكان لهذا الحادث وقعـــا ســـيئا على المسلمين، فأنفذ الرسول ﷺ إليهم جيشا يتألف من ثلاثـــة آلاف رجـــل برئاسة زيد بن حارثة فى جمادى الأولى من السنة الثامنـــة مـــن الهجـــرة فالتقى بجيش الروم عند قرية مؤتة على تخوم الشام ، ورغـــم مـــا يرويـــه المؤرخون عن ضخامة جيش الروم حتى قيل أنه يقدر بمائة ألف غير مثلهم من العرب، ونحن نشك فى حقيقة هذا العدد إلا أنه لايمنع أنه كـــان يفـــوق جيش المسلمين عُدة وعدداً، فإن المسلمين لم يترددوا فى الاشتباك مع جـــيش الروم .

ورغم استشهاد عدد من المسلمين على رأسهم زيد بن حارثة وجعفر ابن أبى طالب وغيرهم ألا أن بطولات مشرفة ظهرت فى ميدان المعركـــة

---

(١) أنظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٧٩ .

وبرز في هذا اليوم خالد بن الوليد الذي تمكن من ايقاع الرعب في قلب الروم بتغيير مواقع قواته واشعار العدو بأن عددا ضخما من المدد قد أقبل على المسلمين، مما جعل الروم يحجمون عن الهجوم وكان هذا ما يهدف إليه خالد حتى يعود من تلك المعركة بجيشه سالما في معظمه، ويتفادى تلك الحشود الكبيرة من الروم، وعاد خالد بجيشه إلى المدينة ، لكن بعض المسلمين استنكروا عودة الجيش دون انتصار حتى أن البعض ألقى عليهم التراب وهم يقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله ، فرد الرسول ﷺ بقوله: ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

٩- قمة الانتصار فتح مكة سنة ٨ هـ :

لم تحترم قريش شروط صلح الحديبية ، وساندت بني بكر الداخلين في عهدها وعقدها على خزاعة التي دخلت في عهد النبي ﷺ بعد الصلح وقُتِل من خزاعة بعض رجالها وهزموا أمام بني بكر ، وكان النزاع بين القبيلتين له جذور قديمة ترجع إلى ما قبل الإسلام حيث كان النزاع بين الجانبين على أشده ، فلما جاء الإسلام حجز بينهما وتشاغل الناس به .

وتذكر الروايات التاريخية أن قريشا لم تجمع على نقض صلح الحديبية وتأييد بني بكر ضد خزاعة ، بل أن التأييد لم يتعد مد خزاعة بالسلاح والرجال سراً خوفا من أن يصل الأمر إلى المسلمين، ويقال أن أبا سفيان زعيم قريش لم يُشاوَر في ذلك ولم يعلم به . ولكن بعد وقوع الصدام بين بني بكر وخزاعة ندمت قريش على ما صنعت وأدرك زعماؤها أن هذا الذي صنعوا يُعَد نقضاً للمدة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدث جدل شديد بين زعماء قريش حول هذا الأمر ولاموا بعضهم بعضا ، وذهب وفد من المعارضين إلى أبي سفيان الذي أقسم لهم

بعدم علمه بما كان من معاضدة قريش لبنى بكر، واقترح المعارضون أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة فيتفاوض مع الرسول ﷺ فى أن يجدد العهد ويزيد مدة الصلح قبل أن يبلغه هذا الأمر .

ويروى ابن هشام أن عمرو بن سالم الخزاعى أسرع الى المدينة حتى قدم على رسول الله ﷺ فوقف أمامه بالمسجد والمسلمون مجتمعون وقال أبيات من الشعر يستنجد فيها بالمسلمين ويطلب نصرتهم ضد بنى بكر، وتنفيذ عقدهم وعهدهم مع خزاعة فقال رسول الله ﷺ لما سمع ذلك: نُصِرت يا عمرو بن سالم، كما جاء وفد آخر من خزاعة بقيادة بديل بن ورقاء فأخبروا الرسول ﷺ بما أصيب منهم وبتأييد قريش لبنى بكر عليهم ، فغضب الرسول ﷺ لهذا الموقف من قريش ونقضها العهد، وعزم على نصرة حلفائه ضد خصومهم .

ورجع بديل بن ورقاء وأصحابه ، وفى طريقهم إلى مكة قابلوا أبا سفيان قادما إلى المدينة فى محاولة لإصلاح نتائج موقف قريش من خزاعة، وسأل أبو سفيان ورقاء عن مكان قدومه وهل أتى الرسول ﷺ بالمدينة، فأنكر ورقاء ذلك، ومضى كل من الرجلين فى طريقه وإن كان أبو سفيان قد أدرك أن هذا الوفد من خزاعة قد أخبر محمدا ﷺ بما كان .

وعندما قدم أبو سفيان المدينة دخل على النبى ﷺ فقال: يا محمد، إنى كنت غائبا فى صلح الحديبية، فأشدد العهد وزدنا فى المدة ، فقال رسول الله ﷺ: هل كان قبلكم حدث؟ قال: معاذ الله . فقال رسول الله : فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية .

هذه رواية الواقدى فى كتابه المغازى ، ورغم أن ابن هشام يذكر أن الرسول ﷺ عندما قابل أبا سفيان "لم يرد عليه شيئا" إلا أنه من المرجح أن

رواية الواقدى أقرب إلى الصحة حيث كان رسول الله يرمى إلى التمويه على قريش حتى لا تستعد لما قرره من فتح مكة ، ويبدو أن أبا سفيان لم يجد قبولا فى المدينة ولم ينجح فى الوصول إلى ما يُطمئن قريش على صلحها مع المسلمين، ولم يرحب به فى المدينة حتى من أقرب الناس إليه .

وتروى المصادر إن ابنته أم حبيبة -زوج رسول الله- رفضت أن تجلسه على فراش زوجها لأنه رجل مشرك لا يحق له ذلك، والتقى أبو سفيان بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار فقابل أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وسعد بن عبادة، وطلب منهم التدخل لدى رسول الله ﷺ ليجدد العقد ويزيد مدة الهدنة، كما توسل إليهم أن يجيروا بين الناس (أى يفصلوا بينهم ويمنعونهم من الحرب) لكن الجميع رفضوا الإستجابة له لأن مكانهم بجوار رسول الله لا يخالفون له أمرا .

ويتضح من روايات المؤرخين أن أبا سفيان كان يدرك تماما خطورة الموقف وأنه لا قبل لقريش بالمسلمين فى هذه المرحلة مما أصابه بحالة من الاضطراب والفزع حتى أنه طلب من فاطمة بنت النبى ﷺ أن تجير هى بين الناس، فلما تعللت بأنها امرأة، طلب منها أن تأمر أحد ابنيها يجير بين الناس وكان الحسن والحسين مازالا صبيين فى سن الطفولة، وتدخل على بن أبى طالب مستجيبا لطلب النصيحة من أبى سفيان وقال له: والله ما أعلم شيء يغنى عنك شيئاً. فقم فأجر بين الناس والحق بأرضك .

فقام أبو سفيان بين جموع الناس فى المدينة وصاح: أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس وركب راحلته وانطلق إلى مكة وفى مكة كان زعماء قريش فى تشوق لمعرفة ما جاءهم به أبو سفيان من لقائه بالرسول ﷺ وزعماء المسلمين فى المدينة، فلما أخبرهم بما حدث وإجارته بين الناس،

سخروا منه وقالوا: مازاد "عليّ" على أن تلعب بك تلعباً. فقال: والله ما وجدت غير ذلك .

وبدأ المسلمون الاستعداد لغزو مكة، وكان الرسول ﷺ يرمى إلى مفاجأة قريش فى مكة وعندما أراد الجهاز للغزو قال لعائشة: جهزينا واخفى أمرك ودعا الى الله قائلا: اللهم خذل على قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتة، واحتفظت عائشة بجهة الرسول ﷺ سرا حتى عن أبيها ولكن الرسول أخبره أنه يريد قريشا وأمره أن يخفى ذلك عن الناس وراح المسلمون يستعدون للخروج دون أن يعلموا وجهتهم، وعلى حسب تعبير الواقدى "فظان يظن أن رسول الله ﷺ يريد الشام، وظان يظن ثقيفا، وظان يظن هوازن". ولإحكام التمويه بعث الرسول ﷺ سرية من رجاله إلى الطريق بين مكة واليمامة لتصل الأخبار إلى قريش بعكس ما ينوى المسلمون .

ورغم هذا الكتمان الشديد فإن أحد أفراد المسلمين وهو "حاطب بن أبى بلتعة" كتب رسالة إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله من السير إليهم، وأعطى الرسالة لامرأة من مُزينة جعل لها قدرا من المال على أن تُبلغها قريشاً، ويقال أنها أخفت الرسالة فى طيات شعر رأسها، فأتى الخبر من الوحىّ إلى الرسول ﷺ فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فى طلبها وأدركا المرأة وهي فيي طريقها إلى مكة واستطاعا أن يحصلا منها على الرسالة، وعاتب الرسول حاطب على فعلته فأعلن حاطب ندمه وعفى الرسول ﷺ عنه .

وأرسل رسول الله ﷺ رُسُلا إلى القبائل من حوله يدعوهم إلى الإجتماع فى شهر رمضان بالمدينة فقدمت عليه قبائل "أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع" وخرج رسول الله ﷺ من المدينة فى عشرة آلاف رجل يوم

الأربعاء العاشر من رمضان سنة ٨ هـ قاصداً مكة وقدّم رسول الله أمامه سرية استطلاع بقيادة الزبير بن العوام في مائتين من المسلمين ونادى مناديه: من أحب أن يصوم فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر ولما وصل قرب الظهران قال رسول الله ﷺ: "انكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم".

وكانت قد عُميت الأخبار عن قريش فلم يأتهم خبر عن رسول الله ﷺ ولم يدروا ما هو فاعل ، وخرج في بعض تلك الليالي أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به ويروي المؤرخون هذه الرواية نقلا عن العباس عم رسول الله ﷺ فيقال: قال العباس بن عبد المطلب :

"واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوا فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. قال فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك. (موقع بالقرب من مكة) لعلى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وبينما أنا أسير باحثاً والتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل وقد ظهر عليهم الخوف وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول :

ما رأيت كالليلة قط نيرانا ولا عسكرا فقال بديل: هذه والله خزاعة قد حمشتها الحرب. فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة فعرف صوتى فقال: أبو الفضل. قلت نعم. فقال فداك أبى، وأمى. قلت :

"ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ فى الناس واصباح قريش والله" قال: فما الحيلة؟ فداك أبى أمى ، قلت تركب عجز هذه البغلة فأستأمن

لك عند رسول الله، فو الله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فركب خلفى ورجع صاحباه فخرجت به أركض ببغلة النبى ﷺ نحو المسلمين فكلما مررت بنار من نيران المسلمين ونظروا إلىّ قالوا: عم رسول لله ﷺ على بغلة رسـول الله ﷺ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد .

ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركب بغلته فسبقته بما يسبق الدابة البطيئة الرجل البطئ فدخل عمر بن الخطاب على رسول لله ﷺ فقال: هـذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله فيه بغير عهد ولا عقد فدعنى أضرب عنقه، فقلت يارسول الله إنى قد أجرته .

فلما أكثر عمر فى شأنه قلت مهلا يا عمر، فو الله لو كان من بنـى عدى بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه من رجال بنى عبـد منـاف. فقال: مهلا يا عباس، فو الله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى رسـول الله ﷺ من إسلام الخطاب يوم أسلم. فقال رسول الله ﷺ اذهب به يا عباس إلى رُحلِك ، فإذا أصبحت فأتنى به .

ويستمر العباس فى روايته فيقول: فذهب إلى رحلى، فبات عنـدى ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله. قال : بأبى أنت وأمى. ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شـيئا، قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله . فقال : بأبى أنت وأمى، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك، أما هذه ففى النفس منها شـئ . فقـل العباس: ويلك، أسلم واشهد أن لا إله الا الله ، وان محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد أبو سفيان شهادة الحق . فأسلم.

فقال العباس: يا رسول لله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا قال: نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، وأمر رسول الله ﷺ العباس أن يقف بأبى سفيان عند مقدمة الجبل حتى يرى جنود المسلمين وهم فى طريقهم إلى مكة وبعد أن شاهد أبو سفيان جموع المسلمين أطلقه العباس وطلب منه أن يلحق بقومه فى مكة فيحذرهم .

فخرج أبو سفيان سريعاً حتى أتى مكة فصاح فى الناس: "يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، فحرضت زوجته هند بن عتبة الناس لقتله وصاح به البعض: وما تغنى عنا دارك؟ فقال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد الحرام" .

وكان رسول الله ﷺ قد فرّق جيشه بحيث يدخل المسلمون مكة من كل جهة وأمر قواده ألا يقتلوا أحداً غير من قاتلهم إلا بعض من سماهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة لارتكابهم جرائم لاتغتفر فى حق الأسلام والمسلمين منهم عبد الله بن سعد وغيره .

وتقدمت القوات الإسلامية ودخلت مكة دون قتال يذكر ولما نزل رسول الله ﷺ مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت الحرام فطاف به سبعا على راحلته، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة فدخلها ثم وقف على باب الكعبة وقد احتشد حوله الناس فقال .

لا إله إلا الله وحده لاشريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده،.. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب – ثم تلا قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (سورة الحجرات: آية ١٣) .

ثم قال : يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها عثمان بن طلحة فهى فى أعقابه حتى اليوم .

وتوجه الرسول ﷺ إلى البيت الحرام فأزال ما به من آثار الوثنية والشرك من تماثيل وصور، وأقبلت قريش على الإسلام فلم يستمر على كفره بعد الفتح إلا القليل منهم، وكان لإسلام قريش أثر كبير على باقى القبائل العربية التى رأت قريشا المحافظة على تقاليدها المنزعمة للوثنية فى شبه الجزيرة العربية تُقبل على الإسلام مما جعل حلفائها يقتدون بها وانتشر الإسلام فى أنحاء شبه الجزيرة العربية وانهارت عروش الوثنية وكانت عُمان من أهم أقاليم شبه الجزيرة العربية التى حظيت بدعوة الرسول ﷺ لحكامها إلى الدخول فى الإسلام والإنخراط فى حركة الدين الأسلامى:.

الفصل الخامس

سير الأحداث بين عُمان والمدينة حتى وفاة الرسول ﷺ

أولاً : رسالة النبيّ ﷺ إلى ملكي عُمان .

١ - تاريخ بعث الرسالة النبوية .

٢- نص رسالة النبيّ ﷺ وتعددها .

٣- موقف ملكي عُمان من رسالة النبيّ ﷺ .

٤ - طرد الفرس من عُمان

ثانياً : الأحوال في مكة بعد الفتح

١ - غزوتا حنين والطائف (٨هـ)

٢- غزوة تبوك (٩ هـ)

٣ - وفاة الرسول ﷺ وعودة عمرو من عُمان.

الفصل الخامس
سير الأحداث بين عُمان والمدينة حتى وفاة الرسول ﷺ

أولاً : رسالة النبىّ ﷺ إلى ملكى عُمان .

١ - تاريخ بعث الرسالة النبوية

مما سبق عرضه يمكن التأكيد على أن انتشار الإسلام فى عُمان قد جاء عن طريق حركة أهل عُمان ومبادرتهم بالتوجه إلى المدينة واعتناق الدين الإسلامى عن رغبة واقتناع، ولكن الدعوة الرسمية -إن صح هذا التعبير- للعمانيين للإنضواء تحت راية الاسلام، جاءت عندما بعث الرسول ﷺ بكتاب إلى ملكى عُمان جيفر وعبد ابنى الجلندى يدعوهما إلى الإسلام وقد أوردت المصادر خبر هذه الرسالة النبوية، ولكن كثرة الخلاف بين هذه المصادر قد أوقعنا فى حيرة حول تاريخ ارسال هذه الرسالة وشخصية حامل الرسالة، الصيغة التى كتبت بها وهل كانت رسالة واحدة أم أكثر، كل هذه الأمور تحتاج إلى إجابة واضحة لأن المصادر قد خلطت بينها وكررت روايات متنوعة دون تحديد أو حسم .

وأقدم ما وصل إلينا فى هذا الموضوع رواية ابن هشام (ت ٢١٣هـ/٨٢٨م) فى السيرة حيث يقول أن الرسول ﷺ بعث الرسل إلى الملوك بعد عمرته التى صُدّ عنها يوم الحديبية وذكر أسماء الرسل وأسماء من أرسلوا إليهم ومن بين هؤلاء: " .. عمرو ابن العاص السهمى إلى جيفر وعباد[١] ابنى الجلندى الأزديين ملكى عُمان"[٢] وبما أن أحداث الحديبية قد وقعت فى

---

(١) تجدر الملاحظة أن بعض المصادر تذكره "عبد" والبعض "عباد" .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية،ج٤ ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

ذى القعدة سنة ٦هـ/٦٢٧م فإنه من المحتمل طبقا لهذه الرواية أن الرسول ﷺ قد بعث عمرو بن العاص إلى عمان فى أوائل سنة٧هـ /٦٢٨م[١].

وهنا يثار سؤال مهم ، هل كان عمرو بن العاص قد أسلم فى هذا التاريخ أو قبله ؟ .

وطبقا لرواية ابن هشام بإسناد عن عمرو بن العاص نفسه أنه أعلن إسلامه فى المدينة أمام الرسول ﷺ "قبل الفتح"[٢] فهل المقصود هنا فتح مكة؟ فإذا كان الأمر كذلك فرواية ابن هشام لا تستقيم، فلا يُعقل أن يرسل الرسول ﷺ عمرو بن العاص مبعوثا إلى عُمان وهو على شركِه، أم المقصود بالفتح هنا "الحديبية" التى نزلت فيها سورة الفتح "إنا فتحنا لك فتحاً مبينـا"[٣]، وإذا كان الاحتمال الأخير صحيحاً، فإن رواية ابن هشام تتسق زمنيا بين إسلام عمرو بن العاص وارساله إلى عمان، ونلاحظ أن المصادر المتأخرة تذكر رواية ابن هشام فيما يختص باسلام عمرو بن العاص، وتحدد تاريخاً لإسلامه عام خيبر سنة ٧هـ /٦٢٨ م[٤] أو بين الحديبية وخيبر[٥] ولكن تعود لتنفى ما سبق لتؤكد أن الأصح هو أن عمرو بن العاص أسلم فى صفر

---

(١) يذكر ابن سعد أن الرسول ﷺ قد بعث الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وذلك بعد عودته من الحديبية، وتحرك ستة نفر منهم فى المحرّم سنة ٧هـ ، لم يذكر من بينهم عمرو بن العاص (انظر : الطبقات الكبرى ، ج١ ، قسم ٢ ، ص ١٥) .

(٢) انظر : ابن هشام ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٣) سورة الفتح ٤٨ : ١ .

(٤) ابن الأثير ، أسد الغابة فى معرفة الصحابة (القاهرة ١٩٧٠)، ج٤، ص ٢٤٥ .

(٥) ابن حجر، الإصابة فى تمييز الصحابة، (القاهرة ١٣٢٨ هـ) ج٣، ص ٢ ابن عبد البر، لاستيعاب فى معرفة الأصحاب (القاهرة ١٣٢٨هـ) ج٢ ، ص ٥٠٨.

سنة ٨هـ/ ٦٢٩م[1] وهكذا فإن رواية ابن هشام متضاربة ولا يمكن الأخذ بها .

وتأتى فى الترتيب الزمنى بعد ذلك رواية ابن سعيد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) فيقول: ".. بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى .. "[2]، أما البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢م) فى كتابه فتوح البلدان فيعطينا أكثر من رواية فى هذا الموضوع، ولأهميتها فى مناقشة قضيتنا سأوردها بنصها :

"كان الأغلبيين على عُمان الأزد، وكان بها من غيرهم بشر كثير فى البوادى، فلما كانت سنة ثمان بعث رسول الله ﷺ أبو زيد الأنصارى أحد الخزرج وهو أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ -اسمه فيما ذكر الكلبى قيس بن سكن بن زيد بن حرام وقال بعض البصريين: اسمه عمرو ابن أخطب .. وقال سعيد بن أوس الأنصارى: اسمه ثابت بن زيد! وبعث عمرو بن العاص السهمى إلى عبد وجيفر ابنى الجلندى بكتاب منه، يدعوهما فيه إلى الإسلام وقال: إن أجاب القوم إلى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الأمير وأبو زيد على الصلاة وأخذ الإسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن، فلما قدم أبو زيد وعمرو عمان، وجدوا عبداً وجيفراً بصحار[3] على ساحل البحر فأوصلا كتاب النبى ﷺ إليهما، فاسلما ودعوا

---

(١) أنظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٢٤٥، ابن حجر، المصدر السابق، ص ٢، ابن عبد البر، المصدر السابق، ص ٥٠٨ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، قسم ٢، ص ١٨ .

(٣) كانت صحار عاصمة عمان فى ذلك الوقت ميناءاً مشهوراً على ساحل الخليج العربى، ويعدها المؤرخون من بين أهم أسواق العرب المشهورة قبل الإسلام ، ويعقد سوقها فى أول رجب من كل عام، ولا يحتاج فيها إلى خفارة لأنها كانت أرض =

العرب هناك إلى الإسلام، فأجابو إليه ورغبوا فيه ، فلم يزل عمرو وأبوزيد بعُمان حتى قُبض ﷺ ويقال أن أبا زيد قدم المدينة قبل ذلك "[١] .

ويستطرد البلاذرى قائلا ": وقد قال قوم : أن رسول الله ﷺ كان وجّه أبا زيد بكتابه إلى عبد وجيفر ابنى الجلندى الأزديين فى سنة ست ، ووجه عمراً فى سنة ثمان، بعد إسلامه بقليل ، وكان إسلامه فى صفر سنة ثمان .. وأن رسول الله ﷺ قال لأبى زيد : خذ الصدقة من المسلمين والجزية من المجوس "[٢].

ويفهم من روايات البلاذرى السابقة أن الرسول ﷺ قد بعث إلى عمان مبعوثين، ويذكر أولاً أبا زيد الأنصارى ويعرفه بأنه أحد من جمع القرآن على عهد الرسول ﷺ ومن الغريب أن البلاذرى يزيد من الغموض حول شخصية هذا الصحابى، فيعطى لنا غير اسمه الذى ذكره ثلاثة أسماء أخرى، فأى الأسماء يمكننا الاعتماد عليها فى بحثنا عن حقيقته ودوره فى عمان. ولا سيما أنه فى روايته الثانية يفصل بين دور أبى زيد هذا وبين عمرو بن العاص، فالأول قد جاء إلى عمان سنة ٦هـ/٦٢٧م والثانى سنة ٨ هـ/ ٦٢٩م .

=مملكة، وكان آل الجلندى يوفرون الأمان للتجار ويأخذون منهم العشر (انظر: تاريخ اليعقوبى، (بيروت بدون تاريخ) ج٢، ص ٢٧٠ المسعودى، التنبيه والإشراف، (بيروت ١٩٨١) ص ٢٦٠ .

(١) البلاذرى، فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ج١، ص٩٢ ، وينقل عنه هذا النص باختصار قدامة بن جعفر (ت ٣٢٩ هـ) فى كتابه الخراج وصناعة الكتابة (طبع العراق ١٩٨١) ص ٢٧٦ .

(٢) البلاذرى ، المصدر السابق ، ص ٩٣ .

ومن الأهمية بمكان، أن نلاحظ انفراد البلاذرى عن باقي المؤرخين بذكر هذه الرواية التفصيلية عن أبى زيد الأنصارى، فيما عدا إشارة عابرة ذكرها خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤م) فى استعراضه لعمال الرسول ﷺ فقال: "وبعث عمرو ابن العاص إلى عُمان، قبض رسول الله وعمرو عليها، ويقال قد كان بعث أبا زيد الأنصارى إلى عمان[1] "مما يرجح أن وفود أبى زيد الأنصارى ورحيله عن عُمان كان قبل قدوم عمرو بن العاص.

ويختلف اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) مع الروايات السابقة فى تاريخ إرسال عمرو بن العاص إلى عمان فيرى فى أحداث سنة٩هـ/٦٣٠م عن أخبار الرُسل الذين أوفدهم الرسول ﷺ فيقول: ".. وعمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى إلى عُمان"[2] .

أما الطبرى (ت ٣١٠هـ) فيذكر ثلاث روايات مختلفة التواريخ عن بعث الرسول ﷺ عمرو بن العاص إلى عمان: فيروى فى أحداث سنة ٦هـ / ٦٢٧م بعد ذكر الحديبية عن بعث الرسول ﷺ الرسل إلى الملوك أنه بعث "عمرو بن العاص إلى جيفر بن جلندى وعباد بن جلندى الأزديين صاحبى عمان"[3].

والرواية الثانية في أحداث سنة ٨هـ/ ٦٢٩م حيث قدم عمرو بن العاص على الرسول ﷺ فى المدينة فأعلن إسلامه، وفى نفس السنة بعثه

---

(١) أنظر : تاريخ خليفة بن خياط، (تحقيق أكرم ضياء العمرى، بغداد ١٩٦٧) ج١ ، ص٦٢ .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى، ج٢ ، ص ٧٨ .

(٣) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك (طبعة دار المعارف بالقاهرة) ج ٢ ، ص ٦٤٥ .

الرسول ﷺ إلى جيفر وعباد ابنى جلندى بعمان، فصدقا النبى، وأقرا بما جاء به، وصدق أموالها وأخذ الجزية من المجوس " [١].

أما الرواية الثالثة للطبرى فتقول "كان رسول الله ﷺ قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر منصرفة من حجة الوداع، (أى أوائل سنة ١١ هـ/ ٦٣٢م) فمات رسول الله وعمرو بعمان[٢] ويتفق المسعودى (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م) فى كتابه التنبيه والإشراف مع الطبرى فى روايته الأخيرة، فيروى فى أحداث سنة ١١هـ/٦٣٢م. وهى سنة وفاة الرسول ﷺ "فيها كان توجيه رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى الأزديين صاحبى عمان يدعوهما إلى الإسلام فأسلما "[٣].

هذه أهم وأقدم الروايات التاريخية التى تعرضت لهذه المعلومة ولا يخرج معظم المؤرخين الذين جاءوا بعد ذلك عما سبق عرضه، ويهمنا من هؤلاء المؤرخين رواية العوتبى الصحارى لأنه أقدم من كتب فى هذا الموضوع من أهل عُمان -فى علمنا- (توفى فى القرن الخامس الهجرى) الذى يذكر فى روايته اسم حامل رسالة الرسول ﷺ إلى أهل عمان عمرو بن العاص فقط، ولا يذكر أبا زيد الأنصارى، وفى نفس الوقت لا يحدد تاريخاً لقدوم عمرو إلى عُمان[٤]، ولكن روايته تهمنا فى مناقشة ما يتعلق بالرسالة النبوية لأهل عمان فى الصفحات التالية .

وبعد هذا العرض يمكن مناقشة القضية على النحو التالى فيما يتعلق بتاريخ بعث الرسول ﷺ لعمرو بن العاص إلى عمان حاملاً رسالته فإنى

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ .

(٣) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٥٦ .

(٤) العوتبى الصحارى ، كتاب الأنساب (عمان ١٩٨٤) ج٢ ، ص ٢٦٠ .

أرجح الأخذ برواية الطبرى الأخيرة التى ذكر فيها أن الرسول ﷺ قد بعث عمرو بن العاص إلى عمان منصرفة من حجة الوداع[١] والتى يؤيده فيها المسعودى[٢] وطبقا لهاتين الروايتين يكون الرسول ﷺ قد بعث عمرو إلى عمان أوائل سنة ١١هـ/ ٦٣٢م أى قبيل وفاته بعدة أشهر والدليل على ذلك:

أنه إذا اعتبرنا تاريخ قدوم عمرو إلى عمان سنة ٦هـ/٦٢٧م مرفوضا لإجماع معظم المصادر لاتاريخية على أن عمرو بن العاص قد أسلم فى صفر سنة ٨ هـ /٦٢٩م[٣] ومن المستحيل إرساله إلى عُمان فى هذا التاريخ قبل اسلامه، أما أشهر التواريخ فهى قدومه إلى عمان فى ذى القعدة سنة ٨هـ /٦٢٩م فإن هناك من الروايات التاريخية ما يجعل هذا التاريخ مستبعداً .

ففى رواية للواقدى تشير إلى أن الرسول ﷺ عندما بعث المصدقين، أى جامعى الصدقات، فى هلال المحرم سنة ٩هـ/٦٣٠م "بعث عمرو بن العاص إلى فزارة"[٤]. كما تشير رواية أخرى إلى أن عمرو بن العاص كان مشاركاً فى غزوة تبوك (رجب - رمضان سنة٩ هـ /٦٣٠ م[٥]" كما أن الرسول ﷺ قد أسند إلى عمرو بن العاص بعد ذلك، صدقات قبائل سعد وعذرة وجذام، وأنه عندما أرسله إلى عمان كانت مهمته هناك مؤقتة

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج٣، ص ٢٥٨ .

(٢) المسعودى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ .

(٣) انظر على سبيل المثال : الواقدى ، كتاب المغازى ، تحقيق مارسدن جونس ، أكسفورد ١٩٦٥ ، ج٣ ، ص ٦٦١، بن سعبد ، الطبقت ، م٧، قسم ٢ ، ص ١٨٨، تاريخ الطبرى، ج٣ ص ٢٩.

(٤) انظر الواقدى ، المغازى ، ج٣ ، ص ٩٧٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٥٦ .

بالانتهاء من تبليغ رسالة الرسول ﷺ إلى حاكمى عمان والاطمئنـــان إلـــى استقرار الأوضاع هناك ثم العودة إلى ما أسند إليه مـــن أعمـــال، فيـــروى الطبرى: "وقد كان أبو بكر رد عمرو بن العاص على عِمَاله كان رسول الله ﷺ ولاها إياه من صدقات سعد هذيم وعذرة ومن لفها من جذام وحدس قبل ذهابه إلى عمان ، فخرج إلى عمان وهو على عدة من عمله إذا هو رجع ، فأنجز له ذلك أبو بكر " [١].

مما سبق يتضح أن عمرو بن العاص قد شارك فى غـــزة " تبـــوك "وأسندت إليه بعض الأعمال من قبل الرسول ﷺ وكلها تأتى بعد سنة ٨هـــ / ٦٢٩م ومن المستحيل أن يباشر عمرو هذه الأعمال وأن يكون فى عمان فى نفس الوقت، فالروايات التى ذكرت ذهاب عمرو بن العاص إلى عُمان فـــي سنة ٨هــ/ ٦٢٩م تكاد تُجمع أنه ظل بعمان ولم يرجع إلى المدينة إلا بعـــد علمه بوفاة الرسول ﷺ ، ولا يُعقل أن يتواجد عمرو بن العاص في عُمـــان وفي أماكن أخرى في نفس الوقت، مما يرجح ما ذهبنا إليه من أنه ذهب إلى عمان مبعوثاً من الرسول ﷺ فى أوائل سنة ١١هــــ / ٦٣٢م بعـــد حجـــة الوداع.

أما عن شخصية أبى زيد الأنصارى الذى أشار إليه خليفة بن خياط إشارة عابرة، وذكره البلاذرى مشاركاً لعمرو بن العاص فى حمل الرســـالة إلى عمان، ولم تذكره بعد ذلك المصادر الأخرى فإنى أرجح رواية البلاذرى الثانية التى تقوم أن أبا زيد هذا قد جاء إلى عمان سنة ٦هــ/ ٦٢٧م وكـــان دوره تعليم الناس فى عمان أمور الدين الأسلامى والقرآن[٢] وفى هذه الحالة

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج٣ ، ص ٣٨٩ .

(٢) انظر : أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمـــوال، ص ٢٦، الحميـــرى، الـــروض، ص ٤١٣ .

فإن أبا زيد من المحتمل أنه لم يكن يحمل رسالة لأن قدومه إلى عمان قد يكون استجابة لطلب أحد الوفود العمانية التى سبق أن ذكرناها . وبالتالى فإن رحيله من عمان كما يشير البلاذرى وابن خياط كان قبل قدوم عمرو بن العاص إليها حاملا رسالة الرسول ﷺ [١] .

٢- نص رسالة النبى ﷺ وتعددها..

وفيما يتعلق برسالة الرسول ﷺ إلى حاكمى عمان، فنلاحظ وجود أكثر من رسالة موجهة إلى عمان فى العصر النبوى، أهمها الرسالة الرسمية التى بعثها الرسول ﷺ إلى ملكى عمان عبد وجيفر، وينفرد القلقشندى بذكر نصين لهذه الرسالة: النص الأول أوردته معظم المصادر، أما النص الثانى فينقله عن كتاب الأموال ويعتبرهما القلقشندى نصين لرسالة واحدة، ولأهميتهما فى دراستنا، فسنعرض النصين :

النص الأول: "من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد ، فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما ، فإننى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وأن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى فى ملككما. وكتب أبىّ بن كعب" [٢] .

---

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص ٦٢ البلاذرى، فتوح، ص ٩٢، ٩٣.

(٢) انظر : العوتبى، الأنساب، ج٢، ص٢٦٠، القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، (طبع الهيئة العامة للكتاب) ج٦، ص ٣٨٠، على برهان الدين الحلبى، السيرة الحلبية، بيروت بدون تاريخ، مجلد ٣، ص ٣٠١ السالمى ، تحفة ، ص ٣٩ .

ويستطرد القلقشندى فيقول: "وفى رواية ذكرها أبو عبيد فى كتاب الأموال أنه كتب اليهما: "من محمد رسول الله لعباد الله (أسيد ابن ملوك عمان وأسيد عمان) -هكذا- من كان منهم بالبحرين، إنهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطاعو الله ورسوله وأعطوا حق النبى ﷺ ونسكوا نسك المسلمين، فإنهم آمنون، وأن لهم ما أسلموا عليه .." (١) .

ونلاحظ تحريفا واضحاً وقع فيه القلقشندى عند نقله لرواية أبى عبيد فالرسالة عنده موجهة "من محمد رسول الله لعباد الله الأسبذيين ملوك عمان وأسد عُمان .. الخ (٢).

ونحن لا ندرى إن كان هذا التحريف قد حدث عن عمد ، حيث أُريد لها أن تكون موجهة إلى "أسد عمان" لتتفق مع الرواية الأولى فذكرت عبارة "أسيد بن ملوك عمان" بدلا من الأسبذيين، أو كان التحريف عارضاً نتيجة لخطأ فى النسخ .

وكيفما كان الأمر فإن أبا عبيد يشرح ما أورده فى هذه الرسالة من عبارة "عباد الله الأسبذيين" بأنهم سموا بذلك لأنهم نسبوا إلى عبادة فرس، وهو بالفارسية "أسب" فنسبوا إليه ، أما قوله "لعباد الله" يعنى "بنى عبد الله بن دارام" وهم قوم من الفرس(٣). ولكن الجواليقى فى معجمه العربي / الفارسي يصحح بعض المفاهيم التى جاءت عند صاحب الأموال والقلقشندى، فمن تفسيراته أن أسبذ: اسم قائد من قواد كسرى، فارسى، وقد تكلمت به

(١) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٣٨٠ .

(٢) انظر النص الأصلى للرسالة بكتاب الأموال ص ٢٦ .

(٣) كتاب الأموال، ص ٢٧ .

العرب وقيل "عبيد اسبذ" وكان يخاطب بهذا عبد القيس، كما قيل أن أسبذ قرية بالبحرين، وكان أصل سكانها من قرية بنفس الأسم فى عُمان[١] .

ومن المؤكد أن هناك قبائل من أصل واحد منتشرة فى البحرين وعمان من الأزد وعبد القيس وربيعة وغيرها . فرواية اليعقوبى توضح ذلك فيقول: "وكان تفرق أهل اليمن فى البلاد وخرجهم عن ديارهم بسبب سيل العرم، فكان أول من صار منهم إلى عُمان مالك بن فهم .. من الأزد، وتزوج مالك بامرأة من عبد القيس ، ثم لحق بمالك جماعة من بطون الأزد منهم: الربيعة وعمران بنو عمرو بن عدى .. فلما صاروا بعمان انتشروا بالبحرين وهجر "[٢] .

وهكذا يتضح أن الرسالة الثانية كانت موجهة إلى العناصر الفارسية ومن ينضوى تحت سلطانهم من العرب، فتشير المصادر أن أساورة[٣] الفرس فى عهد الرسول ﷺ كانوا منتشرين فى مناطق متعددة على ساحل الخليج ومنها عمان، وكانوا يحكمون هذه المناطق باسم الدولة الفارسية ، كم تذكر هذه الروايات اسم شخصية عمانية يسمى صاحبها "أبو شداد الزمارى العمانى" الذى يأتى على لسانه أنه قد وصلت إلى عمان رقعة من الرسول ﷺ مكتوبة على الجلد موجهة إلى الأساورة، ولم يجدوا من يقرؤها لهم، حتى

---

(١) انظر: الجواليقى، المعرب، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٩٦٩، ص ٨٦-٨٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبى، ج ١ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٣) الأساورة عناصر عسكرية فارسية ، ويقال أن لهم جذورا هندية كانوا منتشرين فى معظم سواحل الخليج قبل الإسلام ، ولما انتشر الإسلام دخل بعضهم فيه وشاركوا المسلمين فى غزواتهم (أنظر: الجواليقى، ص ٦٨، القاضى أطهر مباركيورى، العرب والهند فى عهد الرسالة، القاهرة، ١٩٧٣ ، ص ٧١ - ٧٢)

عثروا على فتى استطاع قراءتها واستمعوا فحواها. فلما سؤل أبو شداد عن من كان على عمان في ذلك الوقت؟ قال: أسوار من أساورة كسرى[١] .

ومن المحتمل أن الرسالة التى يتحدث عنها أبو شداد العمانى هذا، هى الرسالة الثانية التى أوردها القلقشندى نقلا عن أبى عبيد، لأنها مكتوبة باللغة العربية وموجهة إلى العناصر الفارسية على سواحل عمان مما يجعل من الصعب عليهم قراءتها كما أشرنا، حتى جاء فتى يعرف الفارسية والعربية فأسمعهم ترجمتها، ويؤكد هذا المعنى العوتبى الصحارى فيقول إنه عندما صار ملك عمان إلى آل الجلندى بن المستكبر المعولى، وصار ملك فارس إلى آل ساسان كانت المهادنة بينهما، فكان بعمان طبقا لشروط هذه المهادنة أربعة آلاف من الأسارة والمرازبة مع عامل يكون للفرس بعمان ، وكانت المهادنة تحدد أماكن تواجد الفرس فى السواحل وشطوط البحر ، وظل الفرس على حالهم هذه حتى ظهور الإسلام وانتشاره بعمان[٢] مما جعل الرسول ﷺ يوجه اليهم رسالة خاصة بهم لأنهم كيان مستقل له نفوذه وسيطرته على بعض الأراضى العمانية يدعوهم فيها إلى الدخول فى الإسلام.

ومما يرجح هذا الرأى أن هناك سوابق مماثلة حدثت فى البحرين فيروى ابن سعد أن الرسول ﷺ قد أرسل كتاباً إلى مجوس هجر -وهم الفرس ومن تبعهم بطبيعة الحال- يدعوهم فيها الى الإسلام فإن أبوا أخذت منهم الجزية[٣] وكان فى نفس الوقت قد أرسل رسالة إلى المنذر بن ساوى

---

(١) انظر : القاضى مباركيورى :، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٢) انظر: العوتبى، الأنساب، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج١، قسم ٢، ص ١٩، والبلاذرى ، فتوح ج١ ، ص ٩٥ .

حاكم البحرين يدعوه فيها إلى الإسلام[١] والمعروف أن هجر كمدينة كانت عاصمة البحرين، وأحيانا كان يطلق على البحرين كلها هجر في ذلك الوقت[٢].

ويفهم مما سبق أن هؤلاء الأسبذيين كانوا منتشرين في البحرين وعُمان كما جاء في نص الرسالة، وأن بعض هؤلاء قد رحل إلى المدينة لمقابلة الرسول ﷺ ليعرفوا منه الوضع الخاص بهم في ظل انتشار الإسلام في المنطقة، فكان قرار الرسول ﷺ بشأنهم الدخول في الإسلام أو دفع الجزية[٣] كما نصت رسالة الرسول ﷺ السابق الإشارة اليها.

ومما تقدم نرجح أن الرسول ﷺ قد بعث برسالتين إلى عمان ، الرسالة الأولى الموجهة إلى عبد وجيفر ابنى الجلندى ملكى عمان وكان يحملها عمرو بن العاص، أما الرسالة الثانية فكانت موجهة إلى الفرس المقيمين بعمان باعتبارهم قوة مستقلة لها رئاستها الخاصة يدعوهم أيضًا إلى الدخول فى الإسلام، وإن كنا لا نعلم تاريخ هذه الرسالة أو حاملها على وجه التحديد.

٣- موقف ملكى عمان من رسالة النبى ﷺ

وكيفما كان الأمر فإنه من المهم بمكان معرفة تأثير رسائل الرسول ﷺ على الذين أرسلت إليهم، ومدى استجابتهم لدعوته لهم إلى الدخول فى الإسلام.

---

(١) انظر : أبو عبيد، الأموال ، ص ٢٦.

(٢) انظر : صفى الدين البغدادى ، مراصد الاطلاع ، تحقيق على محمد البجاوى ، بيروت ، ١٩٥٤ ، ج ٣ ، ص ١٤٥٢ .

(٣) الجواليقى: المعرب ، ص ٨٨ .

فالرسالة الأولى كانت موجهة إلى عبد وحيفر ابنى الجلندى ملكى عمان ، وواضح أنه رغم انتشار الأسلام فى عمان وذهاب وفود من القبائل العمانية إلى المدينة تعلن إسلامها، إلا أن حاكمى عمان لم يكونا قد أسلما بعد، ومن المهم تحديد موقفهما من الإسلام لتأثير هذا على عمان ككل وعلى القبائل التى لم تدخل الإسلام حتى ذلك الوقت.

وأقدم الروايات فى هذا الشأن يوردها ابن سعد برواية مسندة لحامل الرسالة عمرو بن العاص يفهم منها أن عمراً عندما قدم على عمان أتيح له فى البداية مقابلة عبد بن الجلندى الذى أحسن استقبال عمرو.لذلك يصفه بأنه "أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً"، ولما عرف عبد المهة التى جاء لها عمرو أفهمه أنه لا يستطيع أن يتصرف فى هذا الأمر لأن أخاه هو المقدم عليه بالسن والملك، ووعده بأن يقدمه إلى جيفر حتى يقرأ كتابه، ويفهم من عبارة لعمرو بأنه مكث أياما ببابه قبل الإذن له بمقابلته، وأن عمراً أعطى تلميحاً لعبد عن فحوى الرسالة من حيث دعوة الملكين للدخول فى الإسلام وليس تفاصيلها، وأن الأيام التى انتظرها عمرو بين العاص كانت بمثابة مشاورات وتقدير موقف لتحديد الرد المناسب من جانب الأخوين، ورغم ذلك فالنص يذكر أن عمرو عند لقائه بجيفر سلمه كتاب الرسول ﷺ مختوما ففض خاتمه وقرأه ثم دفعه إلى أخيه فقرأه، وطلب جيفر من عمرو أن يترك له فرصة يوم ليرد على كتابه،[١] فلما التقى عمرو بالأخوين فى اليوم التالى، كان رد جيفر هو رفض الرسالة وقال لعمرو: "إنى فكرت فيما دعوتنى إليه، فإذا أنا أضعف العرب إذا ملكت رجلاً ما فى يدى" [٢].

---

(١) انظر : ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، قسم ٢ ، ص ١٨.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨ .

ولا تذكر المصادر العمانية هذا الرفض، ولكن تشير إلى أن جيفر قال لعمرو أن ما يدعوه إليه فى هذا الكتاب أمر جسيم، وأنه سيتدبر الأمر ثم يعلمه، فعقد مجلساً ضم رؤساء الأزد كما استدعى "كعب بن برشه" وكان نصرانيا قد سبق أن التقى بالرسول ﷺ فى المدينة وأعلن إسلامه على يديه وعاد إلى وطنه عمان[١] وجرت مشاورات وسأل المجتمعون كعب عن حقيقة أمر النبى ﷺ فأقر بنبوته وأنه سيظهر على العرب والعجم، فاستجاب عبد وجيفر ملكى عمان إلى الإسلام[٢] .

وهذا يتسق مع رواية ابن سعد على لسان عمرو السابقة حيث يذكر أنه بعد الرفض السابق ذكره، أعلن عمرو أنه راحل إلى المدينة، فلما تأكد جيفر من رحيله أرسل إليه " فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا وصدقا بالنبى ﷺ وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم " [٣] .

وواضح أن الفترة الزمنية بين رفض جيفر وإسلامه طبقا لرواية ابن سعد هى التى ذكرها العوتبى كفترة استشارة وتدبر من جانب جيفر قبل الإقدام على هذه الخطوة الخطيرة وإخضاع ملكه ودولته للإسلام، ولم يكتف الأخوان بذلك، بل يروى العوتبى أن جيفر "بعث إلى وجوه عشائره فبايعهم لمحمد ﷺ وأدخلهم فى دينه وألزمهم تسليم الصدقة، وأمر عمرو بن العاص بقبضها، فقبضها على الجهة التى أمر بها النبى ﷺ ثم بعث إلى مهرة والشحر[٤] ونواحيها، .. ثم بعث إلى دبا وما يليها إلى آخر عُمان ، فما ورد رسول جيفر إلى أحد إلا وأسلم وأجاب دعوته " [١] .

---

(١) انظر التفاصيل ، العوتبى ، الأنساب ، ج٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) انظر : الأنساب ، ص ٢٦١ ، قارن . ابن سعد ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

(٣) انظر : ابن سعد ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

(٤) يذكر الأصطخرى أن بلاد مهرة قصبتا الشحر ويقال أنها من عمان أى تابعة لعمان (انظر: كتاب الأقاليم، بغداد بدون تاريخ) ص ١٤، ويذكر النويرى أن وفودا من =

٤ - طرد الفرس من عمان .

أما ما يتعلق برسالة النبى ﷺ الثانية الموجهة إلى الفرس فى عمان فإنه يفهم من المصادر أن عمان قد أقبلت على الإسلام وأن المناطق الخاضعة لسلطان جيفر قد خضعت لأوامره واستجابت لدعوته من دَبا إلى مهرة والشحر، إلا أن العناصر الفارسية الموجودة على سواحل عمان طبقا للمهادنة التى سبق ذكرها ، والتى أشرنا إلى أن الرسول ﷺ قد أرسل إليهم رسالة يدعوهم فيها إلى دخول في الإسلام، فمن الواضح من استقراء الأحداث أن العناصر الفارسية رفضت رسالة النبى ﷺ .

وأن هذه العناصر رفضت الإستجابة أيضا إلى دعوة جيفر لهم بدخول الإسلام ويبدو أن جيفر قد وجد الفرصة سانحة ليتخلص من العناصر الفارسية التى تسيطر على أجزاء من سواحل عمان ، فالتقى جيفر بزعماء الفرس فى عمان وخيرهم بين أمرين : الدخول فى الإسلام أو الرحيل عن عُمان[٢] . ولكن الفرس رفضوا كلا الخيارين فكان الصدام العسكرى أمرا حتمياً فى هذه الظروف إذا صمم الطرفان على موقفهما ، ومن الواضح أن جيفر كان مؤيداً من جانب أعداد كثيرة من أهل عُمان ، الذين وجدوا الفرصة سانحة للتخلص من نفوذ الفرس فى بلادهم ، فيروى العوتبى" واجتمعت الأزد إلى جيفر بن الجلندى . وقالوا : لا يجاورنا العجم بعد هذا اليوم "[٣] .

=أهل مهرة والشحر سبق أن وفدت على الرسول (ص) فى المدينة وأعلنوا إسلامهم أمامه وهذا قبل أن تصلهم دعوة جيفر مما سهل مهمة دخولهم الإسلام (انظر : نهاية الأرب ، ج ١٨، ص ١١٧ ، ١١٨) .

(١) انظر : العوتبى ، المصر السابق ، ص ٦١ ، قارن : قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج، ص ٢٧٦ ، السيرة الحلبية ، مجلد ٣ ، ص ٣٠١ - ٣٠٣ .

(٢) انظر العوتبى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٢ ، السالمى ، تحفة الأعيان ، ص ٤٠ .

(٣) العوتبى ، نفسه ، ٢٦١ ، السالمى ، تحفة ، ص ٤٠ .

وواضح أن الفرس لم يستطيعوا إدراك الروح الجديدة التى دبت فى القبائل العمانية بعد دخولها الإسلام الذى ألف بينهم تحت راية واحدة وقيادة واحدة، فاستعد الجانبان للقتال، ودارت معركة عنيفة بين الأزد والفرس بالقرب من صحار انهزم فيها الفرس وحوصروا بعد الهزيمة فى حصن لهم يسمى تستجرد قرب صحار، وطال حصارهم وأيقنوا الهزيمة، فطلبوا الصلح من العمانيين الذين استجابوا لهم ولكن بشروط المنتصر الذى يملى رغبته فيذعن لها المهزومون وكانت الشروط أن يخرج الفرس من عمان بأهلهم ومن تبعهم، وأن يتركوا كل ما يملكون من سلاح وكراع وأموال[١] فأذعن الفرس لهذه الشروط إنقاذاً لأرواح ما تبقى منهم بعد أن قتل فى المعركة عدد كبير منهم وعلى رأسهم عامل الفرس على عمان[٢] .

وهكذا تمكن العمانيون باتحادهم تحت راية الإسلام من القضاء على نفوذ الفرس فى بلادهم وأصبحت بلادهم خالصة لهم لا يشاركهم فى خيرها عناصر أجنبية، ويعتقد ولكنسن أنه " كان من أشد ما جذب عرب عُمان إلى الإسلام أنه أتاح لهم أن يتخلصوا من الحكم الفارسى وأن يملكوا البلاد بقراها الغنية وأن يجنوا ثمرات التجارة البحرية "[٣]. وهذه العبارة لا تستقيم بهذا الشكل، لأن ولكنسن جعل العمانيون يدركون مسبقاً نتائج دخولهم فى الإسلام، و جعل من النتيجة سبباً .

وأصبحت عُمان منذ ذلك الوقت جزءاً من الدولة الإسلامية الناشئة، وكانت قيادة الحكم فى عمان فى يد الأخوين عبد وجيفر طبقا لوعد الرسول ﷺ لهما فى كتابه إليهما حيث قال: "أنكما أن أقررتما الإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا فإن ملككما زائل عنكما"[٤].

---

(١) انظر السالمى . تحفة ص ٤٠ – ٤١ .

(٢) العوتبى ، الأنساب ، ص ٢٦٥ ، الأزكوى، المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٣) انظر : ج س .ولكنسن ، بنو الجلندى فى عمان (طبع وزارة التراث فى عمان ، أكتوبر ١٩٨٢) ، ص ١٢ .

(٤) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٨٠ .

الأحوال فى المدينة :

١ - غزوتا حنين والطائف (٨هـ) :

أما عن الأحوال فى المدينة فلم تقبل قبائل هـوازن وثقيـف نتـائج انتصار المسلمين، ودخولهم مكة ظافرين وخضوع القبائل العربية وانضمام معظمها للدعوة الإسلامية فاجتمعوا لقتال المسلمين تحت قيـادة مالـك بـن عوف. ويروى المؤرخون أن مالك حشد جيشاً كبيـراً لمحاربـة المـسلمين وجعل فى مؤخرة جيشه النساء والأطفال والأموال ليحمس جيشه على القتال ويمنعه من الفرار، وطلب من رجاله أن يكسروا أغماد سيوفهم عند لقـائهم بالمسلمين ليقاتلوا حتى آخر رمق .

وصلت أخبار هذه الحشود العسكرية التى أعدها مالك بـن عـوف لحرب المسلمين إلى الرسول ﷺ فى مكة، فاتخذ قـراراً بـالتحرك بجـيش المسلمين الذي كان جاهزاً لمواجهة الخطر الجديد، فلما وصل جيش المسلمين إلى وادى حنين ، وكانت قبائل هوازن وثقيف قد أعدوا كمائن فى مـسالكه، فانقضوا على المسلمين بسرعة فائقة قبل أن يتمكنوا مـن تهيئـة صـفوفهم واعداد أنفسهم للقتال مما سبب اضطرابا شديدا فى صفوف المسلمين وانحاز الرسول ﷺ جهة اليمين ثم قال لجموعه المضطربة "أينَ أيها الناس؟ هلمّوا إلىّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله" إلا أن الإبل حملت بعـضها علـى بعض وانطلق جمع المسلمين دون هدف وقد أحاط بالنبى ﷺ جماعـة مـن المهاجرين والأنصار وأهل بيته مثل أبو بكر وعمر وعلىّ بن أبـى طالـب والعباس بن عبد المطلب.

ولما رأى الرسول ﷺ اضطراب المسلمين وعدم سماعهم لـصوته، قال للعباس وكان صوته قوياً: اصرخ يا معشر الأنصار، فأجابو لبيك -لبيك

واجتمع منهم حوالى مائة وحملوا حملة رجل واحد على العدو وتلاحق بهم من كان قد ترك الموقعة فانكسرت حدة هجوم القبائل المعادية واشتد القتال وتدفق المسلمون على ميدان المعركة بقوة وثبات وتفرق شمل المشركين وفرت فلولهم منهزمة فهرب مالك بن عوف ببعض قواته إلى الطائف .

وقد أنزل الله تعالى فى هذه الموقعة قوله تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ{٢٥} ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ) (التوبة/٢٥ – ٢٦).

ثم توجه الرسول ﷺ بعد ذلك بجيش المسلمين إلى مدينة الطائف لقتال مالك بن عوف، وكانت فلول جيش المشركين قد تحصنوا بالطائف واعتصموا بالحصون والأسوار، وقد أحكموا إغلاق أبوابها وكانوا يرمون جيش المسلمين بالنبل فكانت تصيبهم إذا اقتربوا من أسوار المدينة لذلك أمر الرسول رجاله بألا يقتربوا من مرمى نبل العدو وحصار المدينة عن بعد واستمر حصار المسلمين للطائف ما يزيد على عشرين يوما دون طائل ويبدو أن الطائف كانت مزودة بما يكفيها من المؤن والطعام لذلك لم تتأثر بالحصار.

ويروى ابن هشام أن الرسول ﷺ اضطر إلى قذف أسوار المدينة بالمنجنيق (وهى أداة لرمى الحجارة وكرات اللهب على الأعداء) وكان الرسول ﷺ أول من استعمل سلاح المنجنيق فى الإسلام، كما استخدم الدبابة فى محاولة لخرق أسوار الطائف، لكن أهل الطائف ألقوا عليها قطع الحديد محماة بالنار فخرج الرجال من تحتها فرموهم بالنبل وقتل بعضهم .

وهم الرسول ﷺ بشن حرب اقصادية ضدهم ، فأمر أصحابه بقطع مزارع الكروم حول الطائف وبدأ أصحابه فى تنفيذ ذلك مما جعل ثقيف تدرك مغبة ذلك عليها من الناحية الاقتصادية، فكانت محاصيل الكروم من أهم مصادر الرزق لقبيلة ثقيف، فأرسل الثقفيون إلى الرسول ﷺ تتوسل إليه بعدم تخريب تلك الحقول حتى لا تضيع أبد الدهر وطلبت منه أن يأخذها لنفسه أو يدعها لله والرحم فاستجاب الرسول ﷺ لتوسلاتهم وبقى على حصار الطائف حتى دخل شهر ذى القعدة فرفع عنها الحصار ليعود إليها بعد انتهاء الأشهر الحُرم .

رجع الرسول ﷺ بجيشه إلى الجُعرانة وهى مكان بين الطائف ومكة وكان بها السبايا والغنائم التى حصل عليها المسلمون فى موقعة حنين وأتاه وفد من هوازن معلنين إسلامهم واستغاثوا بالرسول أن يرد لهم ما غنمه المسلمون من الأموال والسبى، وقال رجل من هوازن: "إنما فى الحظائر خالاتك وحواضنك اللائى كن يكفلنك"، فخيرهم الرسول ﷺ بين استردادهم للأموال أو السبى فتنازل لهم الرسول ﷺ عن كل ما دخل منهم فى نصيبه أو نصيب بنى عبد المطلب، واستشفعوا للمسلمين برسول الله ﷺ، واستجاب للشفاعة المهاجرين والأنصار وردوا لهم ما دخل ملكهم من السبى والأموال.

وقد أبدى الرسول ﷺ حكمة وكياسة فى تعامله مع أهل الطائف وأعلن عفوه عن مالك بن عوف إذا أقبل إليه تائبا مسلما، وأنه سيرد عليه أهله وماله بالأضافة إلى مائة من الإبل ، فلما علم مالك بذلك أقبل على النبى ﷺ فبايعه على الإسلام وحسن إسلامه بعد ذلك .

وخرج الرسول من الجعرنة إلى مكة معتمرا ثم انصرف عائدا إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد ووصل المدينة فى أواخر ذى القعدة سنة ٨هـ .

٢- غزوة تبوك (سنة ٩هـ):

فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة خرج الرسول ﷺ على رأس جيش المسلمين فى آخر غزوة له عندما علم أن الروم تجمعوا عند تخوم الشام لقتال المسلمين، وتوجه جيش المسلمين شمالا حتى وصل إلى تبوك فصالح أهلها الرسول ﷺ لاذى أقام بتبوك عدة أيام أقبل عليه خلالها وفودا من إيله وجزياء وأهل أذرح "فصالحهم الرسول ﷺ على دفع الجزية وكتب العهود لأهل تلك المناطق، كما أرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد على رأس جيش من المسلمين إلى "دومة الجندل" وأسر صاحبها أكيدر بن عبد الملك الكندى الذى عفا عنه الرسول ﷺ عندما أعلن إسلامه.

وكان هدف الرسول ﷺ من وراء ذلك هو إظهار قوة المسلمين فى تلك المناطق المتاخمة لحدود الدولة الرومانية وحتى لا تفكر القبائل العربية المقيمة هناك فى التحالف مع الرومان ضد المسلمين كما حدث فى موقعة مؤتة، وعاد الرسول من تبوك إلى المدينة فى رمضان من نفس العام، وقد تميز هذا العام بوفود أعداد كثيرة من القبائل العربية إلى الرسول فى المدينة تعلن إسلامها وانضمامها إلى الدولة الإسلامية حتى عُرف هذا العام بعام الوفود، ورغم هذا فإن بعض القبائل العربية ظلت على شركها وعداوتها للاسلام وأصبحت بؤر للفتنة والخروج على نظام المجتمع الإسلامى الذى تحول من مجرد دولة المدينة فقط إلى دولة كبرى تشمل معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وكان لابد أن تحدد تلك الأقلية المشركة موقفها من المجتمع الإسلامى وفى نفس الوقت لابد أن تتخذ الدولة الإسلامية من تلك الفئة موقفا واضحا لحماية نظامها وأهدافها، وقد أوحى الله إلى رسوله ﷺ بالطريقة التى يسلكها فى تعامله مع الذين رفضوا الإسلام حتى ذلك الوقت وجاء ذلك فيما

اصطلح على تسميته "بيان براءة" الذى نزل فى سورة التوبة، وفى موسم الحج فى العام التاسع من الهجرة وهى مناسبة مهمة يجتمع فيها العرب من كل فج عميق، فوّض الرسول ﷺ على بن أبى طالب بإعلان ما جاء في سورة التوبة على الملأ فى أثناء الحج حتى يعلم الجميع موقف الله ورسوله والمسلمين من تلك الفئة الخارجة عن المجتمع الإسلامى. وهذا نص الآيات :

في قوله تعالى: (بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ{١} فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ{٢} وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{٣} إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ{٤} فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ....) (سورة التوبة إلى آخرها).

٣- وفاة الرسول ﷺ:

أدى النبى ﷺ فريضة الحج فى العام العاشر من الهجرة وهى حجته الأخيرة واجتمع فيها مع المسلمين حوالى مائة ألف حاج من جميع أرجاء الجزيرة العربية ، وعند جبل عرفات ألقى الرسول ﷺ على المسلمين خطبته الخالدة التى لخص فيها ما يريد أن يتبعه المسلمين من بعده ، وما يقتدون به من المبادئ والمثل العليا وكأنه يدرك ببصيرته أنه لن يلقاهم فى مثل تلك المناسبة مرة أخرى فابتدرهم قائلاً: "أيها الناس، اسمعوا قولى فإنى لا

أدرى لعلى لا ألقكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا .. واختتم خطابه بقوله المأثور اللهم هل بلغت، فقال الناس : اللهم نعم ، فقال الرسول ﷺ اللهم أشهد...

وقد أعلن الحق عز وجل أن القرآن قد تم نزوله على النبى فى ذلك اليوم حيث نزل قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) (المائدة /٣) .

وبعد حجة الوداع بحوالى ثلاثة أشهر مرض النبى ﷺ بالحمى، واشتد عليه المرض فأحاط المسلمون بالمسجد فزعا عليه ، فخرج إليهم وجلس بينهم ووعظهم وأمرهم بالترابط والتمسك بوحدتهم وعقيدتهم، وأوصى المهاجرين والأنصار ببعضهم خيراً.

وفى يوم الأثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ /٨ يونيو ٦٣٢م لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وهو فى الثالثة والستين من عمره وقد أتم الرسالة وأدى الأمانة كما أرادها الله سبحانه وتعالى .

وقد أصاب خبر موت النبى بعض المسلمين بالذهول حتى أن عمر ابن الخطاب لم يتحمل وقع النبأ ووقف مهددا بسيفه كل من يقول أن النبى ﷺ قد مات، ولكن أبا بكر تلقى النبأ بثبات وخرج إلى جموع المسلمين المحتشدين حول دار الرسول وخطب فيهم خطبته الشهيرة التى قال فيها عبارته المأثور، أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حىّ لا يموت ثم استشهد بقول الله سبحانه وتعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران ١٤٤).

وكان على عُمان عند وفاة الرسول ﷺ عبد وجيفر ابنى الجلندى[١]، وكان هناك تعاونا وثيقا بين الأخوين وبين عمرو بن العاص فى هذه الفترة، حسب أوامر الرسول ﷺ في رسالته إلى الأخوين فعن رواية لعمـــرو بـــن العاص أنه بعد أن دخل الملكان فى الاسلام، وصدقا بالنبى ﷺ "خليا بينـــى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لى عونا على من خالفنى فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها فى فقرائهم، فلم أزل مقيما فيها حتى بلغنا وفاة رسول الله ﷺ "[٢] .

(١) انظر: تاريخ اليعقوبى، ح٢، ص ١١٢، الحميرى، الروض، ص ٤١٣.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح ١، ص ١٨ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية القديمة :-

- ابن الأثير : على بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠هـ):
  ١- أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، ١٩٧٠.
  ٢- الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٨٢م.

- الاصطخري: أبو اسحاق ابراهيم بن محمد (٣٤١هـ):
  ١- كتاب الأقاليم: (تصوير بغداد بدون تاريخ).
  ٢- كتاب مسالك اللممالك، ليدن ١٩١٧.

- البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ):
  - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق على محمد البحاوي، بيروت ١٩٥٤م.

- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ):
  - فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦م.

- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ):
  - البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٨٥م.

- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن على العسقلاني (ت ٨٥٢هـ):
  - الاصابة فى تمييز الصحابة، القاهرة، ١٣٢٨هـ.

- ابن حزم: أبو محمد على بن أحمد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ):
  ١- جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد لاسلام هارون، القاهرة، ١٩٧١م.

٢- الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق عبد الرحمن عميرة وآخرون، جدة، ١٩٨٢م.

- الحلبي: علي برهان الدين:
- السيرة الحلبية، مجلد ٣ (طبع بيروت بدون تاريخ).

- الحميري: عبد المنعم السبتي (ت أواخر القرن التاسع الهجري):
- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت ١٩٨٤م.

- ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ):
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق على عبد الواحد وافي، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٧٩م.

- ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ):
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، ٨ أجزاء (بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧٢).

- خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ):
١- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد، ١٩٦٧م.
٢- كتاب الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد ١٩٦٧م.

- الرازي: فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ):
- اعتقاد فرق المسلمين والمشركين، القاهرة ١٩٧٨م.

- أبو زكريا: يزيد بن محمد بن إياس (ت ٣٣٤هـ):
- تاريخ الموصل، القاهرة، ١٩٦٧م.

- ابن سعد : أبو عبد الله محمد الزهري (ت ٢٣٠هـ):
- الطبقات الكبري، ٨ أجزاء، طبعة دار الشعب بالقاهرة).

- ابن سعيد المغربي: أبو الحسن على بن موسي (ت ٦٨٠هـ):
- كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، ١٩٧٠م.

- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت ٥٤٨هـ):
- الملل والنحل، القاهرة ١٩٧٧م.

- الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ):
- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، (طبعة دار المعارف بالقاهرة).

- ابن عبد البر: النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ):
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، القاهرة ١٣٢٨هـ.

- أبو عبيد القاسم بن سلام:
- كتاب الأموال (بيروت بدون تاريخ).

- ابن عذاري: أبو عبدالله محمد المراكشي (ت أواخر القرن السابع الهجري):
- البيان المغرب في أخبار المغرب، نشر كولان وبروفنسال، ليدن، ١٩٤٨م.

- العوتبي: سلمة بن مسلم الصحاري (ت القرن الخامس الهجري):
- كتاب الأنساب، ٢ جزء، تحقيق محمد الصليبي، سلطنة عمان ١٩٨٤م.

- أبو الفرج الأصفهاني: على بن الحسين (ت ٣٥٦هـ):

- كتاب الأغاني (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة).

- ابن قتيبة الدينوري: عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ):
١- عيون الأخبار، القاهرة، ١٩٧٣م.
٢- المعارف: تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة ١٩٦٩م.

- قدامة بن جعفر (ت ٣٢٩هـ):
- الخراج وصناعة الكتاب (طبع العراق ١٩٨١م).

- القلقشندي: احمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ:
- صبح الأعشي في صناعة الانشاء، ١٤ جزء (طبع الهيئة العامة لكتاب بالقاهرة).

- كتاب السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان (جزء ١) تحقيق سيدة اسماعيل كاشف، القاهرة ١٩٨٦م.

- ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤هـ):
- البداية والنهاية، القاهرة، ١٩٣٣م.

- الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ):
- كتاب الولاة والقضاة، تحقيق رفن جست، بيروت ١٩٠٨م.

- أبو المحاسن: جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ):
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبع دار الكتب ١٩٦٣م).

- المسعودي: علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ):
١- التنبيه والاشراف (بيروت ١٩٨١م).

٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨م.

- أبو منصور الجواليقي: موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر:
- المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٩٦٩م.

- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ):
- نهاية الأرب في فنون الأدب (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب).

- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك المغافري (ت ٢١٣هـ):
- السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة، ١٩٧٨م.

- الهمداني: أبو بكر محمد بن أبي عثمان الحازمي (ت ٥٨٤هـ):
- عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب، تحقيق عبد الله كنون، القاهرة ١٩٧٣م.

- الواقدي: محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ):
- كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونس، اكسفورد ١٩٦٥م.

- ياقوت الحموي: شهاب الدين بن عبد اله (ت ٦٢٦هـ):
- معجم البلدان ، بيروت، ١٩٥٥م.

- اليعقوبي: أحمد بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ):
- تاريخ اليعقوبي ، (طبع بيروت بدون تاريخ).

ثانياً : المراجع الحديثة :-

- أطهر مباركيوري الهندي :

- العرب والهند في عهد الرسالة، ترجمة عبد العزيز عــزت، القــاهرة ١٩٧٣م.

- ج. س. ولكنسن:

- بنو الجلندي في عمان (شنر وزارة التراث القومي، ســلطنة عمــان، ١٩٨٢م).

- ابن رزيق: حميد بن محمد:

- الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان (نشر وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٩٧٨م).

- سالم بن حمود بن شامس السيابي:

- عمان عبر التاريخ (شنر وزارة التــراث القــومي، ســلطنة عمــان، ١٩٨٢م).

- السالمي: نور الدين عبدالله بن حميد (ت ١٣٣٢هــ):

- تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان (مطابع القلعة بمصر بدون تاريخه).

- سرحان بن سعيد الأزكوي:

- كتاب تاريخ عمان: المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد القيسي، القاهرة، ١٩٨٠م.

- سيدة اسماعيل كاشف :

- عمان في فجر الإسلام (نشر وزارة التراث القومي - سلطنة عمـــان، ١٩٨٩م).

- سيف بن حمود بن حامد البطاش:

- إرشاد السائل إلى معرفة الأوائل، سلطنة عمان ١٩٨٨م.

- على حسني الخربوطلي :

- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، القاهرة ١٩٥٩م.

- عوض خليفات:

- نشأة الحركة الأباضية، عمان ١٩٧٨م.

- محمد رشيد العقيلي:

- الأباضية في عمان وعلاقاتها مع الدولة العباسية فـــي عــصرها الأول (نشر وزارة التراث القومي - سلطنة عمان، ١٩٨٤م).

- محمود شكري الألوسي:

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، جزء ٣ (القاهرة بدون تاريخ).

فهرس الموضوع

الموضوع	الصفحات

رقم الإيداع : 24399 / 2009
الترقيم الدولي : 9- 048 – 438- 977


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

